# هيكل
# المملكة والظل والتاريخ

تأليف

كمال محمد علي



# الإهـــداء

إلى البـاحثين عن الحقيقـة وسـط
هـذا الخضـم الهـائل من الزيف

# شكر

**إلى**

الدكتور : يحيى عبده لتصميمه الغلاف

**إلى**

الأخ : عبد المجيد إبراهيم لإعادة صياغة هذا الكتاب

**كذلك**

الأخ : عماد الدين عبد الحميد حسن لكتابة الآلة الكاتبة

# بيان

جاءنى الزميل حاتم فريد رئيس القسم العلمى بمجلة أكتوبر بفكرة إصدار كتاب عن الأستاذ هيكل وعرضت عليه المشاركة فيه ، هو يتولى الجانب السياسى وأحاول أنا أن أتعرض للجانب الإنسانى منه ، فرفض على استحياء ، لكننى فوجئت بأن فكرته عن الكتاب ما هى إلا أحاديث مع مسئولين كانوا على قرب من هيــكل بعضهم يسمى ( بالهيكليين ) والآخرين لهم رأى ليس مخالفا فقط ولكنه ضده .

وقد أبديت رأيى أن هذه الأحاديث لا ترقى لأصول إصدار الكتب وتأليفها وهى أقرب للتحقيقــات الصحفية فما هى إلا أسئلة توجه من الســائل إلى الشخصية ويجيب عليهــا المسئول وإن كانت كلها تشمل موضوع واحد وهو الأستاذ هيكل وبالفعل ابتــدأ الزميل العزيز وأنا بصحبته التسجيل مع كلا من اللواء حسن البــدرى فى منزله وكذلك الأستاذ ممدوح طه فى مكتبه وانفرد هو بباقى الأساتذة مثل الملاخ والعطار وسامى حكيم على ما أظن وبعد انقطاع فترة ليست بالقصيرة كنت أخاله انتهى من عمله عاد وهو شديد الإحباط من الاستمرار فى هــذا العمل لعوامل عدة لم يفصح عن جلها .

إن صاحب فكرة إخراج هذا الكتاب إلى النور هو الدبلوماسى الدكتور عباس العمارى منذ كان مستشــارا بوزارة الخارجية وأثنــاء دراسته بأكاديمية ناصر العسكرية العليا .

ورغم حماسه الشديد بادىء الأمر لهذا الموضوع إلا أنه لم يلبث أن تقاعس بالطريقة الدبلوماسية المعهودة أحيانا بعدم التفرغ وأحيانا أخرى لضيق الوقت .

وربما توحى الحقيقة غير هذا وذاك وقد تكون لحساسية الموضوع حتى لا يكون منحازا لفئة دون مراعاة الرأى الحيادى سيرا على الصراط المستقيم ، وها أنا أبادر بالاعتراف بأنه له الفضل فى دفع العجلة الأولى التى ولدت الطاقة لإنجاز هذا العمل المتواضع وكم كان بودى أن يشرف اسمى إلى جواره سعيا إلى الحقيقة ولكنى ألتمس له العذر الكافى فى عدم تكملة الطريق والسير على الدرب .

**( ولا تبخسوا النـــاس اشياءهم )**
سورة الأعراف (٨٥) .
سورة هود (٨٥) .

**« قرآن كريم »**

# تمهيد

أن يفكر الإنسان فى الكتابة عن كاتب مرموق فتلك مشكلة لابد أن ينشغل بها العقل أكثر من مرة .

وأن يتناول الإنسان الكتابة عن هذا الكاتب لابد أن يعمل لهـا ألف حساب ، فما بالك أيها القارىء الكريم بأن يكون هذا الكاتب هو محمـد حسنين هيكل الذى تعودت عينـاك أن تكتحل بمقالاته منذ الخمسينات على الأقل حتى وقتنا الحاضر سواء فى الصفحة الأخيرة من جريدة أخبار اليوم أو فى مجلة آخر ساعة أو على مدى فترة تقـارب العشرين عاما بجريدة الأهرام تحت عنوان بصراحة Frankly Speaking ثم تلى ذلك الحوارات والأحاديث والمقتطفات فى جرائد ومجلات أحزاب المعارضة المصرية أو الصحف والدوريات بالعـالم العربى وأخيرا وليس آخرا ، الكتب التى تنشر على مدار السنوات العشر الأخيرة من السبعينات وأوائل حقبة الثمانينات والتى ترجمت إلى أكثر من عشرين لغة من لغات هذه المعمورة ، ألا تجد أنه من الصعب على الإنسان أن يحـاول مجرد المحاولة من أن يقترب من الأعتاب الهيكلية أو حتى يناوش أطراف تلك الشخصية ذات الأبعاد المتعددة من المعرفة . ولا أن يدنو من برج هـذه التوليفة المركبة الموسوعية .

وها نحن بعون الله قد اقتحمنا هذا الحصن وبقى أن نجنى ثمـار ما يسكبه اليراع الأسمر ، ولشد ما تكون الدهشة والحيرة عندما نجد أنفسنا فى حيص بيص فى ترتيب الأولويات ، هل تكون البداية هو هيكل الإنسان حيث نلقى الضوء على الوجه الآخر .

ولم يرتاد هـذا الجزء الكثير من عشـاق الوجه المضيء من قراء المقالات وكتاب الجيل ، أم كيف يكون تنظيم الموضوعات التى ستسرد على الصفحات القادمة .

أم نقتحم البحر العميق ذا الأمواج العاتية من الآراء ونحاول السباحة مع التيار المنطقى للترتيب حتى نصل إلى بر الأمان أو نعود القهقرى إلى نقطة الانطلاق حيث كنا والعود أحمد . نأسف لهذا الإزعاج حيث أدخلناك أيها القارىء العزيز فى هذه الحيرة لكننا وطيدى الأمل أنك ستشفق علينا جسارتنا فى الشروع — على استحياء — فى هذا الموضوع حتى تخرج المطابع وريقات على هيئة كتاب متواضع عن هيكل إحقاقا للحق ومحاولة وضع لبنة صغيرة فى أحد أركان هذا الصرح الشامخ . والتى ما فتئت تستجيب ليراعه تتلقف كلماته فتسطر الحروف بجوار الحروف فى سباق تتابع نحو الهدف وتسكب عليها المداد الساخن وتخرج بالأحجام (الأبناط) المختلفة مقدمة للقارىء عصير الفكر والتجارب بكل دفء وحرارة .

وطالمـا كتب الكثير وقرأته الملايين على مدار الأعوام والسنين وبقى أن يكتب عنه — حيث ما قد كتب قليل — إنصـاف لا نبتغى إلا الحقيقة لوجه الله تعالى .

ولا شك أيضا أن كاتبنا ليس بالأسطورة وإن كان له من المهـابة وقوة الشخصية ما يضفى عليه من الرهبة والخشية مع تنوع المعرفة وسعة الاطلاع ما جعلنا من أن تتطاول فى سرد قصة هيكل .

نرجو وتتعشم أيهـا القارىء العزيز أن يكون حكمك على نفس الدرجة من الإنصاف حتى لا نميل كل الميل .

المؤلف

# توضيح

عند الشروع فى تدوين هذا الكتاب كان علينا تحديد مواضيع الفصول الثابتة وكذلك اختيار العنوان المناسب وكانت تظلنا الأفكار التقليدية فاختير للعنوان مثلا الزعامة الصحفية ما له وما عليه • وكذلك تطرقنا لعناوين الفصول كالآتى

١ ــ هيكل الإنسان •
٢ ــ هيكل وصنع القرار فى مصر •
٣ ــ هيكل الصحفى •
٤ ــ هيكل وهؤلاء •

(أ) عبد الناصر •
(ب) أسرة عبد الناصر •
(جـ) أنور السادات •
(د) الاخوة أمين •
(هـ) مجموعة مايو •
(و) الأميركان •

٥ ــ أضواء على بعض مؤلفاته •
وهكذا ••

ولكن إزاء شخصية هيكل الغير تقليدية كان الأجدر أن نستعمل عنوانا غير تقليدى وكذلك نختار للفصول ألفاظا غير تقليدية وقد استتبع هذا إدماج بعض الفصول المتآلفة ليس خروجا عن القاعدة المألوفة للعيان ولكن إقرارا للمكانة المرموقة التى تحظى بها الشخصية واستقر الرأى على العناوين الجديدة والتى لا تخرج عن المضمون السابق تخطيطه والتى لا تخفى على فطنة القارىء الكريم •

(ك)

# الملك يحلم

« .... شأن القارىء المكتشف للمعانى والاتجاهات .. شـأن الرحالة المكتشف للجزر والقارات .. أنها مخلوقة قبل رحلته .. ولكنه هو الذى أخرجها من ضباب يشبه العدم إلى نور أوجدها فى نظر الناس .. لذلك كانت نعمة الكتب قراءها .. وآفة الكتب قراءها أيضا .. فمن القراء من يشبه البحار الجاهل .. فإذا ضل لم يتهم جهله ، إنمـا اتهم البحر وخلوه من الجزر والشواطىء .. وقد لا يضـل ، ولكنه يجول جولة خاطفة ثم يعود سريعا ليقول : أنه تنزه نزهة لا بأس بها ، ولكنه لم يصادف ما يسترعى الالتفات .. على أن هناك نوعا من القراء وأعجب من ذلك .. فهو لا يريد أن يعرف عنك شيئا ، ولكنه يطالبك أنت بشىء : هو أن تكون قد كتبت كتابك طبقا لمـا يريده هو .. » « هـذا عدا صنف آخر من القراء يزيفون أفكارك ، عندما يستعصى عليهم فهمها على حقيقتها ، أو يعبثون بها فتبدوا شيئا غثا ضحلا ، هو لا شك من صنعهم هم .. لا من صنعك أنت » .

« فجملة القول إذن أن القارىء المكتشف ليس بالقارىء العادى ، بل هو قارىء نادر .. لأنه وهب من صفات الصبر والدقة وطول البـال والباع وحسن التلقى وقلة الادعاء .. هذا القارىء وهب من هذه الصفات كلها قدرا يؤهله لأن يكتشف أن يعطيك أكثر مما يأخذ منك .. » (*) .

وللقارىء الأخير نقدم على الصفحات التالية إسهاما ، ربما يكون مفيدا ، فى محاولة استكشاف رجل من رجال الفكر الذين تسربت من خلالهم قوة المحكومين فى عهد الزعيم ( الملهم ) جمال عبد الناصر ، لكنه أبدا لم يفرط فى الحفاظ على كيان الفكر ــ بقدر المستطاع ــ ولم يستدرجه الحكم « الشعبى » إلى حظيرة السياسة العملية إلا رغمـا عنه ، ولفترة

---

(*) من كتاب « التعادلية ــ مذهبى فى الحياة والفن » ــ توفيق الحكيم ــ القاهرة ــ ١٩٥٥

محدودة للغاية ، عاد بعدها ليطل علينا من جديد بقلم الناقد والمفسر والموجه ، مفكرا طليقا يصون وجوده الذاتي الحر ، حاملا رسالته الحقيقية التي تعتبر « الفكر » قوة مستقلة مراقبة وموازنة لقوة « العمل » .

لم يكن محمد حسنين هيكل « صحفى البلاط » كما يقولون ، بل كان من كبار صانعي القرار منذ السنوات الأولى لثورة يوليو ١٩٥٢ وحتى مراحل مبكرة من حكم السادات ، وهو بحق أعظم صحفى عربى فى هذا العصر بلا منازع ، سواء أثار الإعجاب والود أو أثار العداء .

ومقالاته الشهيرة : « بصراحة » هى واحد من اثنين اجتمع عليهما عالمنا العربى ، والثانية هى سهرات الراحلة أم كلثوم مساء أول خميس من كل شهر أفرنجى ، وكما أن المطربة اللبنانية فيروز هى أم كلثوم لبنان فإن الصحفى اللبنانى ميشيل أبو جوده هو هيكل لبنان .

من هو ذلك الرجل الذى استخدمت معه « التايمز » اللندنية ــ وربما للمرة الأولى خلال قرن كامل من الزمان ــ أفعل التفضيل ؟! بمناسبة تقديم « محمد هيكل » ، وهو الاسم الذى يذكره به الناشرون الأجانب ، فى كتاب جديد إلى قرائها ، قدمته فقالت عنه : أنه اعظم صحفى عربى ، وبعدها بسنوات ، تناولت « التايمز » وغيرها من الصحف البريطانية والأمريكية قصة سقوط « مملكة هيكل » حينما ترك الصحافة بقرار من الرئيس السادات ، وقالت : إن هذا الكاتب هو الرجل الذى كتبت عنه رواية فتحى غانم « الرجل الذى فقد ظله » .

إنه واحد من هؤلاء الذين يعيشون حياة الفنان التى تقوم على فلسفة أساسية هى : ماذا أقدم للحياة ؟ وهى حياة تربط بين من يحياها وسائر البشر برباط التعاون والتشجيع . وعودة إلى التاريخ ــ الذى يعشقه هيكل ــ تؤكد لنا أنه يخلد هؤلاء الذين عملوا لمصلحة الإنسان ، واختبار لحياتهم يؤكد أن عظمتهم لم تقم على الأنانية والعدوان ، وإنما

قامت على العمل لخير الإنسانية وهكذا فإن « سقوط المملكة » و « فقدان الظل » لا مجال لهما هنا على الإطلاق ، فمملكة « الأستاذ » ليست كالممالك المعهودة التى تفنى وتندثر ، كما أن ظله هو شىء ما فى داخله لا ينسلخ عنه أبدا .

إن مملكة هيكل هى قلمه وأوراقه وكتبه ، أو قل هى مملكة الفكر والتأمل ، أما ظله فهو الآنا Ego الخاص به الذى يطابق نفسه ولا ينفصل عن أعراضه ويحاول فرض نفسه على الآخرين ، أو قل هو ظل ذاته .

ولعل أول ما يلفت نظر السائح فى مملكة « الأستاذ » ويستأثر بإعجابه هو « وزيره المفوض » ومقرىء أفكاره الذى لا يخطىء ولا يلحن ، هو قلمه الذى يضعه فى كفه والأشياء الأخرى فى كفة ثانية . وحينما يدق بابك ذلك الوزير المفوض تجد أنك أمام هيكل وجها لوجه ، فترى قلما يفكر كعالم ويكتب كفنان ، وإذا به يقدم إليك بضاعة لا تقاس بالأمتار ، ولا توزن بالمكاييل ، بضاعة تبرز أكثر سمات هيكل وضوحا وهى : دقته المتناهية ونظامه الدقيق وقدرته الفائقة على التوقع وحسن التنبؤ .

أما « حاشيته » فتضم آلاف الكتب التى تعج بها مكتبته الخاصة ، ما بين تاريخ وسير ومذكرات شخصية وفنون مختلفة وآثار إسلامية ، فضلا عن الدوريات والجرائد والمجلات وغيرها . ولهيكل أربعون ألف « جارية » من جنسيات مختلفة ، أو أربعون ألف كتاب فى العلوم السياسية مكتوبة ببضع لغات .

ولذا فإنه « غارق حتى أذنيه » فى « دنيا السياسة » : شريكا وكاتبا وقارئا . والسياسى البارع لابد أن تكون له تذوقات فنية أو أدبية ، لأنه يخاطب الجمهور ، كما أنه يحتاج إلى نوع من الصقل الفنى الذى يمنحه قدرا من الراحة الذهنية ، من أجل عطاء أفضل . وهيكل محب للموسيقى منذ مراحل مبكرة من طفولته ، حيث كان يقبل على الاستماع إلى المنشدين

الذين كانوا يفدون إلى قريته « باسوس » فى مولد « سيدى سيف » ، ومن ذلك الحين والموشحات الدينية غرامه الموسيقى الأول ، وهو يعتبرها الوعاء الباقى للنغم الشرقى الأصيل .

يضاف إلى ذلك أنه عاشق للموسيقى العربية ، تستهويه الموشحات الدينية ، وتجذبه أصوات سيد درويش وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب — فى مراحل معينة ، وقبل الخلط الذى طرأ على الأنغام والأداء .

والموسيقى العصرية فى نظره صرخة عصر مختلف لا يقدر على استيعابه ، ويعتقد أن تطور الموسيقى يرتبط بتطور وسائل المواصلات وتتابع اكتشاف الإنسان للطبيعة المحيطة به ، وكذلك تعبر الموسيقى الكلاسيكية عن عصر الحصان والمركبة التى تتهادى وسط المروج والوديان بينما تعبر موسيقى « الرول » عن عصر السيارة والصاروخ والطائرة النفاثة .

ورغم أنه يستنكر سيطرة النموذج الغربى على الثقافة الشرقية — إلا أنه على اتصال وثيق بالموسيقى العالمية ، وهو مدين بذلك ، على حد قوله ، لزوجة الدكتور محمود عزمى الروسية ، والتى شجعته وعاونته على تذوق هذه الموسيقى ، حتى أصبح متابعا جيدا لكل جديد فيها ، وزبونا دائما فى مهرجان « موزارت » الذى يعقد سنويا فى « سالزبورج » .

وهو يرى أن هناك علاقة عضوية مؤكدة بين السياسى والفنان : فكلاهما إنسان يعيش على تقدير ورضاء الآخرين ، وكلاهما تتجاوز اهتماماته كثيرا دائرة مصالحه الخاصة .

إن الثقافة هى الوسط الذهنى للإنسان ، ولذا وجب أن تكون الثقافة حية : تبنى ولا تهدم ، تعتمد على الحقائق ، تنمو نمو المستقبل . ولا شك أن هيكل واحد من أصحاب الثقافات الحية ، فهو يتنصل من الدعوة الجائرة إلى التفكير فى الماضى دون النظر إلى المستقبل ، ورغم ذلك تجده قارىء نهم للتاريخ ، لكنه يوظف ما يقرأ منه لفهم ظواهر مهمة

فى الحياة المصرية ، يقول عنها : أنهـا تتعذر على التفسير والفهم دون الرجوع إلى التاريخ ، ولذلك فهو حريص دائما على العودة ــ مرة كل عام ــ إلى ما كتبه ثلاثة من أشهر المؤرخين المصريين : ابن أياس ، ابن تغرى بردى ، الجبرتى •

ولا ينتفع هيكل من التاريخ المصرى فحسب ، بل هو دؤوب على قراءة التاريخ بصفة عامة ، ويعلل ذلك بأن الكتابة فى الشئون السياسية من داخل الذات أو اعتمادا على الخيال ــ غير ممكنة ، فالكتابة السياسية ترتكز على الحوادث والوقائع ، وتستعين بكل ما تصل إليه حدود المعرفة فى الاجتماع والاقتصاد والعلاقات الدولية ، أما الخلق والإبداع فإنهما يجران الكاتب السياسى إلى نتائج غير سياسية وليست تاريخية • ويمكن فهم وجهة نظره تلك على ضوء إيمانه بحقيقة مؤداها أن المبادىء لا تتغير ، لكن الممارسات هى التى تتبدل وتتحول ، وأن الفكر لابد وأن يتطور ارتباطا بالمتغيرات القومية والوطنية والعالمية •

ولقد مثلت هــذه الأفكار المتنورة سببا من أسباب استمراريته : فالرجل دائم الاطلاع ، يقرأ كل جديد بشراهة ، لا يكف عن سؤال من يعرفون عن كل حديث فى ميادين معرفتهم ، مكتبه عبارة عن مركز بحوث مزود بأحدث الكتب والدوريات و «كمبيوتر» صغير ، ويعمل فيه عدد من الباحثين المساعدين النابهين ، ولذلك فإنه يعثر دائما على جديد يقوله للقارىء •

إن الباحثين عن ظل الأستاذ « الذى فقد » كاد أن يمر عليهمـا عقدان من الزمان دونما فائدة ، بينما هناك نفر من الناس سار مع هــذا الظل فى رياض الفكر وحلائب(*) السياسة ــ حتى قبل أن يتولد فى مخيلة الأولين !

---

(*) الحلبة : خيل تجمع للسباق ، وميدان سباق الخيل . وموضع يخصص للملاكمة والمصارعة ونحوهما . والجمع حلائب ( على غير قياس ) .

يتحدث عنـه الدكتور يوسف إدريس فى مقـال كتبه فى جريدة « الجمهورية » القاهرية بتاريخ ٣٠/١/١٩٦٠ ــ بقوله :

« ... من الثانية الأولى تجد نفسك منجذبا إلى ملامحه الدائمة التغير والانفعال ، المشحونة بكم وافر من الاطلاع وحب الاستطلاع ، وبالكاد تستطيع أن تسمعه وتتابع حديثه ، فحديثه عاجل ، ناعم ، حاسم ، مستمر كدقات تلغراف مبطن بالقطيفـة ، وإذا أردت أن تتكلم أنت ، يلمحك فيقطع عليك التهيـؤ وترتيب الأفكار وأية مقدمات قد تفكر فيهـا .. » .

ويستطرد الدكتور يوسف إدريس قائلا : « ... الكلام عنده كرة يجب أن تتحرك باستمرار ، يوقفها هو بابتسامة خاطفة أو بكلمة ناعمة ، ويندمج ، وتختص الكلمات من فرط سرعتها ، وتصبح مجرد تيار فكرى متواصل يكون دائرة مغلقة بينك وبينه ، دائرة تكهربك وتدفعك إلى مجاراته ومتابعة أفكاره .. » .

وفى كتابه « عشت حياتى بين هؤلاء » الصادر عن مؤسسة الأهرام فى عام ١٩٨٤ م ــ يتناول الأستاذ محمد أحمد فرغلى مناحى متعـددة ومتباينة من شخصية هيكل ، وتلمح فى حديثه انجذابا خاصـا منه إلى الجانب الإنسـانى فى هيكل « الإنسـان » .. يقول الأستاذ فرغلى : « .. عندما صدرت قرارات التأميم وفرض الحراسات فى عام ١٩٦١ هاجر معظم الأجانب وكثير من المصريين إلى خارج البلاد ، وكان الأمر سهلا بالنسبة للأجانب لأن أموالهم كانت مودعة فى الخارج ، وكان من الطبيعى أن يلجأ المصريون ممن وضعوا تحت الحراسة أو أمموا إلى التفكير فى العمل ، تحقيقا لذواتهم وكسبا للعيش .. وقد بدأت بطرق أبواب كبار المسئولين من معارفى كى يتوسـطوا لدى الرئيس ليسمح لى بالعمل ، إما حرا أو حتى فى الحكومة ( كان الأستاذ فرغلى مالكا لشركة تحمل اسمه ، وقد شملتها قرارات التأميم ) .. ولم تفلح محاولاتى ، بسبب

اعتراض عبد الحكيم عامر .. وقفز إلى ذهنى اسم الأستاذ هيكل الصحفى اللامع جـدا فى ذلك الوقت ، والصـديق المقرب من الرئيس جمـال عبد الناصر ، وموضع ثقته .. كنت فى مكتبه بالأهرام فى تمام الثامنة صباحا ، حيث أبديت لسكرتيرته السيدة نوال المحلاوى رغبتى فى لقائه ، وكان بين المنتظرين السيد محمد أبو نصير(*) ( وزير البلدية والقروية فى التشكيلات الوزارية الأولى والثانية والثالثة فى عهد الوحدة ، والذى شغل عدة مناصب وزارية أخرى قبلها وبعدها ) وآخرون ، وما أن خرجت السيدة نوال المحلاوى من عند الكاتب الكبير حتى أذنت لى بالدخول على الفور ، وكانت المرة الأولى التى ألتقى به فيها . كان استقباله حارا .. وبدأت أشرح له سبب مجيئى .. واستمع إلى الرجل بكل جوارحه ، وقال : إنه يقدر شعورى ، ويعرف قسوة البقاء بلا عمل ، ويقدر دورى فى الحياة الاقتصادية ، كما يقدر تعاونى مع الثورة .. » .

ويواصل الأستاذ فرغلى « وتكررت لقاءاتى به بعد ذلك ، وشعرت مع تواصل هذه اللقاءات بتفانيه فى تقديم خدماته لمن يحتاجها ، خاصـة وقت الشدائد ، وقد لاحظت من احتكاكى المستمر به أنه حاد الذكاء ، سريع البديهة ، دقيق النظام ، والمدهش أنه كان يتمتع بذاكرة قوية ، وقدرة على التوقع والتنبؤ .. » . ويذكر الأستاذ فرغلى أنه « لاحظ حرص هيكل الدائم على تسجيل بعض الملاحظات فى أثناء الحديث ، إذا شعر أن محدثه يذكر شيئا له قيمة ، وهذا يدل على أنه يتمتع بحاسة مرهفة كمخبر صحفى » . ويرى فى فقرة أخرى « أن الرواج الذى كان يحظى به مقاله الأسبوعى « بصراحة » لم يكن لمـا يحمله من أخبار جديدة أو أسرار

---

(*) يذكر الاستاذ فرغلى هنا ان السيد محمد ابو نصير كان وزيرا للعدل ، والحقيقة انه لم يتول منصب وزير العدل إلا فى التشكيل الوزارى الأخير فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر ، والمعلن فى مارس ١٩٦٨ ، وقد قدم استقالته من هذا المنصب فى ٣٠ اغسطس ١٩٦٩ ، وشغله من بعده المستشار مصطفى كامل إسماعيل .

لا يعرفها أحد غيره فحسب ، ولكن أيضا لأسلوبه الفريد فى عرض أفكاره ، ولغته الجميلة البسيطة ، وقدرته الفائقة على التحليل والربط بين الأحداث ، وثقافته المتعددة الروافد » ، ويؤكد أيضـــا أن هيكل « ظل حتى هذه اللحظة مؤمنا بأن الكاتب الخبير يجب أن يظل تلميذا مخلصا يتعلم دائما من كتاب يطالعه أو من متحدث يجلس إليه » .

ويقول الأستاذ فرغلى :

« إننى على علم كامل بوقوفه بجـانب الكثيرين ممن أضـيروا بالثورة .. وأعرف أنه ساعد أحمد عبود فى محنته ليسافر إلى الخارج للعلاج ، ولم تكن مساعدته هذه مخالفة للقانون ، بل على النقيض كانت محاولة منه لأن يسود قانون الرحمة والعدل .. لقد كان من الطبيعى أن يكون فى الصحافة وفى السلطة من يضمرون له الكراهية أو حتى الشر ، وهذا أمر إنسانى وطبيعى ساعد على تعضيده صعوده ونجاحه المستمر ، وقربه من الرئيس عبد الناصر ، وثقة الرئيس فيه .. لقد اشتركت مع الأستاذ هيكل فى حب العمل وحب القراءة والشغف بالتاريخ ، وسوف أذكر له دائما مساعدته لى ، ولمن احتاجوا إلى مساعدته فى أحلك لحظات حياتهم » .

ولعل من أبرز الوقائع التى تؤكد شهادة الأستاذ فرغلى السالفة ــ واقعة القبض على حسن جاد بناء على تقرير قدمه ضده الفريق جمـال عسكر : الرئيس الأسبق للجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء ، بسبب نشر الأول بيانا عن المستهلك من الفول فى مصر ، وكان التاريخ بعـد النكسة ، وعلى اعتبار أن هذه السلعة استراتيجية ، ومن شأن نشر بيان كهذا أن يكشف عدد أفراد الجيش المصرى ، وقد شن هيكل فى ذلك الوقت حملة صحفية ضخمة على قادة جهاز المخابرات العامة ، مستغلا فيها الأفكار التى طرحها بيان ٣٠ مارس ، فكان أن تم الإفراج عن حسن جاد بعد أيام قليلة .

وهيكل من هؤلاء الذين يجيدون لعبة الدخول فى أعماق الأغيار ليراهم عن كثب ، ويعتقد اعتقادا راسخا بأن هذه الممارسة ضرورية للغاية ، لتغطية الخلفيات والتصورات التى تعاصر الحدث وتؤثر فيه أو عاصرته وأثرت فيه ، ومن منطق الاعتقاد ذاته فإنه يدون كل محادثة تليفونية يتلقاها ورده عليها ، ويحتفظ بكل ورقة تقع عليها عيناه ، ويكتب ملاحظاته عن كل ما يجرى حوله طوال اليوم .

وهيكل « الكاتب الصحفى » يحترم قارئه إلى الحد الذى يقدم له من خلال الموضوع دراسة متكاملة لا تفتقد إلى العامل الإنسانى مطلقا ، ما يثرى ويدعم الحكم القائل بانتمائه إلى التيار الصحفى العالمى الذى يعتمد على متابعة الأحداث والتعمق فى مهمتها وتحليلها بعناية ، وهو يطرح نفسه دائما على أنه مؤرخ للعصر ، وإن كان يتواضع ــ فى مرحلة متقدمة ــ وينفى عن نفسه هذه الصفة .

إضافة إلى كل ذلك فالأستاذ على علاقات حميمة وواسعة مع عدد كبير من قمم السياسة والفكر العالميين ، وتلك تمكنه من توسيع إطاره المرجعى بصفة مستمرة ، وتجعله فى تفاعل دائم مع قيادات العالم المخضرمة منها والصاعدة . وبهذا يضاف إلى شخصيته بعد آخر يمكن تسميته بالاستمرارية ، وهو بعد يصقله ويقويه أنه هو أحد رموز الناصرية التى لا يزال لها بريق ، وجزء من بريق الناصرية ينسحب بالضرورة على رموزها البشرية .

وتعقب أثر ظل الأستاذ على مدى يوم كامل من أيام حياته ــ يمكن أكثر من الغوص فى أعماقه ، بهدف اقتراب أكثر وأكثر نحو فهم متكامل لرسالة هيكل « الكاتب » إن يوم كهذا تنطبع عليه السمات ذاتها التى تنطبع على قلمه وعقله ولسانه حينما يكتب ويفكر ويتكلم ، وأبرز تلك السمات : دقته المتناهية ونظامه الدقيق ، فهو يستيقظ مبكرا فيما بين الخامسة والسادسة صباحا ، ويبدأ يومه بالاستماع إلى نشرات الأخبار من بعض

الإذاعات العالمية ، وبعدها يمارس رياضته المفضلة وهى الجولف ، بحيث يكون جاهزا على مكتبه لبدء العمل عند الثامنة والنصف تماما . وهو يعمل يوميا ما بين ثمان وعشر ساعات ، ويخصص أياما محددة للمقابلات ، وأخرى بأكملها للكتابة ، وينفق على عمله خمسة أيام أسبوعيا ، لينتفع بيوم الخميس من كل أسبوع فى القراءة الحرة التى تبتعد به عن بؤرة اهتمامه ، ويوم الجمعة فى لقاء الأصدقاء والجلوس إلى أفراد أسرته .

والأستاذ ـ كما يدعوه معارفه والمقربون إليه وأفراد أسرته ـ متزوج من كريمة الثرى المعروف علوى تيمور صاحب مزارع المانجو التى تحمل اسمه ، وذلك منذ عام ١٩٥٥ ، وقد حضر عقد قرانه عليها الرئيس جمال عبد الناصر والصاغ صلاح سالم وزير الإرشاد القومى فى ذلك الوقت ، ولهيكل من زوجته السيدة هدايت علوى تيمور ثلاثة أبناء ، أكبرهم طبيب ، أطلق عليه عليا تيمنا باسم الصحفى الكبير على أمين ، والآخران هما أحمد وحسين وهو يعيش حياته متنقلا بين منزله القائم فى إحدى الأبنية المطلة على النيل ناحية شيراتون القاهرة ، ومزرعته الخاصة فى قرية « برقاش » بالقرب من القناطر الخيرية ، والسفر إلى الخارج بين الحين والآخر .

ولمزرعته الخاصة قصة طالما تناولتها الأقلام ، اتهاما أو دفاعا ، والذين يشهرون دعوى الاتهام فى وجه هيكل بشأن كيفية حصوله على هذه المزرعة يدعون أنه سهل لمالكها السابق السفر إلى الخارج وتهريب أمواله . أما القصة الحقيقية لهذه المزرعة فيرويها الأستاذ السيد أبو النجا بقوله : « .. وبعد أن ترك هيكل ( أخبار اليوم ) أثر تصاعد الخلاف السياسى بينه وبين صاحبى الدار ، وعين رئيسا لتحرير الأهرام ( منتصف عام ١٩٥٧ ) جاءنى يطلب مكافأة ترك الخدمة ، وكانت تبلغ فيما أذكر حوالى خمسة عشر ألف جنيه ، وقال لى : إنه اشترى ثمانية وعشرين فدانا فى « المنصورية » من الأستاذ شميل رئيس مجلس إدارة الأهرام بخمسمائة

جنيه للفدان الواحد ، وطلب منى سحب « شيك » بمبلغ أربعة عشر ألف جنيه باسم شميل مباشرة من قيمة المكافأة فقلت له : وما علاقتى به حتى أسحب « الشيك » باسمه ، واتفقنا على أن يبقى « الشيك » باسمه هو على أن « يظهره » لشميل » . ويتابع الأستاذ أبو النجا المدير المالى لمؤسسة أخبار اليوم « ولقد كان هذا حلا بعيد النظر ، إذ كان هيكل يتوقع مساءلته يوما ما عن مصدر المبلغ الذى دفعه فى شراء هذه الأرض ، وهو ما حدث بالفعل بعد سنوات ــ على حد قوله ــ حينما حقق معه الأستاذ أنور حبيب المدعى العام الاشتراكى فى عهد الرئيس السادات ــ حول هذا الموضوع »(*) . ويرى الأستاذ أبو النجا « أن هذه الأرض لم تكن تساوى فى الواقع أكثر من هذا بأسعار ذلك الزمان ، ولقد أقدم هيكل على استصلاحها وزراعتها كحديقة مثمرة بمساعدة صديقه المهندس سيد مرعى ، كما أدخل عليها تحسينات كثيرة ، فأنشأ بها حوضا للسباحة ومزرعة للياسمين وأخرى للدواجن .. » .

وهيكل من قرية « باسوس » الواقعة بالقرب من مدينة قليوب فى محافظة القليوبية . بدأ الاشتغال بالصحافة فى فبراير ١٩٤٢ ، حيث عمل مخبرا فى قسم الجرائم بجريدة « الأجيبشيان جازيت » ، بعد أن حصل على دبلوم التجارة المتوسطة ، وخلال تنقله فى العمل بين العديد من الصحف والمجلات المصرية ــ حصل على دبلوم فى القانون والإعلان من أحد المعاهد الأجنبية بالمراسلة . ودرس عامين فى قسم الدراسات الاقتصادية بمدارس الليسيه الفرنسية .

والأستاذ هيكل هو أول صحفى يتولى منصب الوزارة ، حيث عين وزيرا للإرشاد القومى فى ٢٦ أبريل ١٩٧٠ بمقتضى أحد من التعديلات الوزارية التى تمت على تشكيل وزارة الرئيس جمال عبد الناصر الأخيرة .

(*) بالرجوع إلى كتاب وقائع تحقيق سياسى أمام المدعى الاشتراكى طبعة ١٩٨٣ لم تذكر هذه الواقعة ضمن التحقيقات .

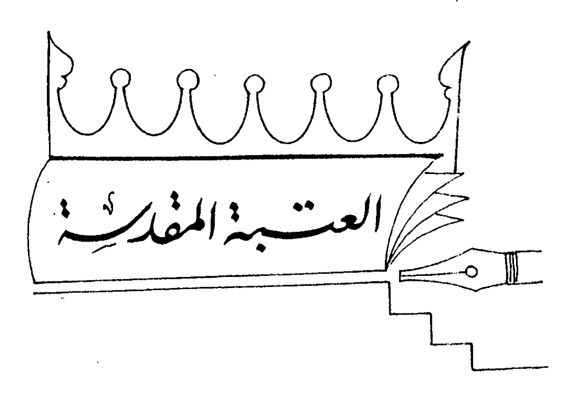
وهو أصغر من تولى رئاسة تحرير جريدة الأهرام ، إذ شغل هذا المنصب ولم يتعد عمره بعد الثالثة والثلاثين ، وكان ذلك فى الحادى والثلاثين من يوليو ١٩٥٧ • وهو الصحفى الذى رأس تحرير واحدة من كبريات المجلات المصرية وهى مجلة « آخر ساعة » بعـد مرور عشر سـنوات فقط من ممارسته مهنة الصحافة وهو أيضا أول صحفى تقام ضده دعوى ويحال إلى لجنة تأديبية بعد صدور قانون نقابة الصحفيين ، وكان قد مثل قبلها أمام محكمة الجنايات فى التاسع من يونيو ١٩٥٣ بتهمة العيب فى امبراطور إيران ، بسبب نشره كتاب « إيران فوق بركان » فى مايو ١٩٥١ ، ولم يمر شهر واحد على هذه الواقعة إلا وقدم إلى المحاكم التأديبية للصحفيين بعد نشره مقالا بعنوان : « حديث صريح عن صحافة مصر » وفى يناير ١٩٧٨ واجه هيكل تهمة التهرب من الضرائب ، وحقق معه المدعى العام الاشتراكى بخصوص هذا الاتهام ، ثم أحيل إلى المدعى العام الاشتراكى فى مايو من نفس العام بتهمة إرسال أخبار ومقالات إلى الخارج تشهر بمصر وتهـدد سلامة الجبهة الداخلية ، ومنع من السفر إلى الخارج إلى حين انتهـاء التحقيق • وفى سبتمبر ١٩٨١ صدر قرار بالتحفظ عليه والتحقيق معه ، ثم أفرج عنه فى نوفمبر من نفس العام بعد أسابيع قليلة من حادث المنصة الشهير وفوق كل ذلك فإن الأستاذ هيكل هو الصحفى الذى زار كل بلاد العالم ما عدا أستراليا ، والذى التقى بمعظم ملوك ورؤساء العالم ، وهو الكاتب الصحفى الذى باع أول كتاب قدمه فى مجال النشر العالمى مليونا وخمسة وعشرون ألف نسخة ، وتجاوز رقم مبيعات آخر كتاب قدمه فى هذا المجال ثلاثة ملايين نسخة ، وهو الرجل الذى قال عنه طومسون : ملك الصحافة البريطانية : « إنه ظاهرة سوف تدرس فى معاهد الصحافة العربية فى القرن الحادى والعشرين » •

لم ينل هيكل شهرته ولم يتألق نجمه ويسطع إلا أنه جدير بذلك ، فهو كفاءة مصقولة نقية من الشوائب ، لم يسع إلى الشهرة عن طريق اعتناق مبدأ غريب ، أو إبداء رأى شاذ ، أو اتباع أسلوب لولبى ، أو

التسلق كالطفيليات ، بل صعد بالعرق والكد والجرى وراء المتاعب ، صعد لأنه يعرف أنه صحفى أولا وأخيرا .

إننا نستطيع أن نعرف الكاتب الذى نقرأ له من الكلمات التى تتكرر فى مؤلفاته أو مقالاته ، ومن ثم تدل على نزعته واتجاهه وفلسفته . ومتابعة وتحليل لكلمات هيكل فى كتاباته ربما تفيد فى الإدراك التام لحدود مملكته والتعيين الدقيق لأبعاد ظله ، ولا ريب أن متابعة كتلك سوف تضيف إلى القارىء إضافة خليقة بالحيازة حول هذا الرجل ، الذى حينما يكتب تقوم ضجة ، وحينما لا يكتب تقوم ضجة أيضا ، والحقيقة أنه لم يتوقف يوما عن الكتابة كما لم يتوقف يوما عن تدخين « السيجار » (*) واستعمال علب الكبريت « كبيرة الحجم » .

(*) فى أول لقاء لهيكل مع خروشوف طلب الإذن بالتدخين ، وحينما هم بإشعال سيجاره استدار إليه خروشوف وسأله : هل انت راسمالى ؟ . . ثم أخذ منه السيجار وسحقه فى المطفأة . وفى عام ١٩٥٨ التقى هيكل مع خروشوف للمرة الثانية ، وفى هذه المرة ترك علبة سيجاره فى الخارج خشية أن يسحقه خروشوف ثانية . وفى عام ١٩٦٣ اهدى خروشوف لهيكل علبة من السيجار الفاخر ، حيث اصبح السيجار ماركسيا لينينيا منذ قيام الثورة الكوبية .


العتبة المقدسة

الدين بمعناه الواسع وما يتصل به من طقوس وشعائر وما يدور حوله من أساطير ــ مادة رئيسية يمكن الرجوع إليها ، لمعرفة وفهم الجوانب الباطنة فى حياة المجتمع • والباحث فى أساطير الشعوب المختلفة يعرف أن هناك درجة عالية من التشابه فيما بينها ، رغم ما يفصل بين هذه الشعوب من مساحات شاسعة وحقب زمنية طويلة • والتراث الأسطورى المعاش عند أمة من الأمم يكيف معاملات هذه الأمة وحركتها ومثلها ، ومن ثم لا تستطيع هذه الأمة أن تمسك بآفاتها وسلبياتها ما لم ينظر أعضاؤها إلى الخلف بقدر ما ينظرون إلى الأمام ، ذلك أن جزءا كبيرا من السالف المتوارث لابد وأن يحتم عليهم ممارسات وأفكارا جديدة •

ومن بين الموروث مجموعة كبيرة من الخرافات الغريبة التى نشأت حول عتب (*) الأبواب فى جميع العصور ، وكافة الشعوب التى مارست عادة تقديس عتب الأبواب كانت تنظر لمن يطأ عتبة الباب نظرتها للآثم الذى يستحق عليه غضب الرب ، ويعزو معظم علماء الأنثروبولوجى السبب فى ذلك إلى اعتقاد الناس فى ارتباط العتب بإله ما يحرسها •

ومنطقتنا العربية ضليعة فى ممارسة الكثير من العادات التى تنبنى على هذا الاعتقاد الخرافى ، ونذكر من ذلك الخلفاء العباسيين الذين كانوا يرغمون من يدخل قصورهم على السجود عند بوابات القصر التى كانت مرتفعة بعض الشيء عن الأرض ، ونذكر أيضا عادة حمل العروس فوق عتبة بيت الزوج ، ووضع الحواجز عند أبواب أضرحة الأولياء ، وذبح الحيوانات عند العتب على سبيل الضحية كجزء من طقوس الزواج أو الوفاة •

---

(*) عتب فلان عتبا : وثب برجل ورفع الاخرى . والباب عتبا : وطىء عتبته واجتازه . والعتبة : خشبة الباب التى يوطا عليها . والجمع : **عتب** .

ومن أبرز ما سجل حول هذا المعتقد الدينى الخرافى ما ورد فى العهد القديم بشأن حراس معبد أورشليم الثلاثة ، الذين كانوا يلقبون « بحراس الباب » وكانت مهمتهم ــ على ما يبدو ــ أن يقفوا عند مدخل البناء المقدس لكى يمنعوا من يريد دخوله من ان يطأ العتبة بقدميه . ويظهر أن التنقيب عن جذور الماضى لاستنهاض الأموات وتمثل معتقدات السلف ، أصبح مهنة عاليه المقام يمتهنها البعض فى زماننا هذا ، فالعقود الثلاثة الماضية شهدت عودة مقنعة لحراس البناء المقدس وإن كانت فى إطار حديث وبمسميات جديدة . فلقد عاد هؤلاء الحراس إلى الحياة مرة أخرى ، ليقفوا على عتب « الأهرام » يراقبون كل من يدخل إليها حتى لا يطأ عتبها بقدميه ، وأعلنوا على الناس أوهاما من صنعهم ، فقالوا إن الأهرام معبد مقدس للصحفى « الأوحد » وإن الصحافة ملك لهذا الصحفى وحكر عليه ، فلا ينبغى لأحد أن يتعدى على ذلك الحكر ، لئلا يستحق عليه غضب الرب .. واستمروا على هذه الحال سنوات وسنوات ، بعدها كفروا بمعتقداتهم التى بشروا بها ، واستحلوا ما حرموه على أنفسهم ، وطفقوا يبشرون بمعتقدات جديدة .

* * *

فى مطلع الأربعينات تعرضت « الأهرام » لمصاعب مالية جسيمة ، بسبب الخط شبه المستقل الذى كانت تتبعه ، وبدأت الحكومة فى الاهتمام بغيرها من الصحف المنافسة « كالمصرى » و « أخبار اليوم » ، ومع مرور الوقت وصلت الأهرام إلى أدنى مستوى لها ، وصاحب ذلك موت واحد من أهم رؤساء تحريرها وهو جبريل تكلا ، وغياب أحد كبار محرريها وهو أنطون الجميل ، كما انحسرت الاعلانات بحيث لم تعد الأهرام تنشر سوى الوفيات ، وساعد على استمرار تدنى الأهرام أنها آثرت الاحتفاظ بسمعتها التقليدية ورفضت انتهاج السياسة التجارية التى ميزت بعض الصحف ، أو اتباع الخط السياسى الموالى الذى سارت عليه صحف أخرى .

ومع تراجع الصحيفة وتزايد خسائرها المـالية ، بحثت عائلة تكلا عن رئيس تحرير يعيد إلى الأهرام مجدها ، فوجدت ضالتها فى شخص المراسل السياسى للأخبار : محمد حسنين هيكل والصحفى الشاب اللامع فى ذلك الوقت وصديق الرئيس عبد الناصر المقرب إليه • ولقد كانت الفترة التى تولى فيها هيكل رئاسة تحرير الأهرام ( تولاها تحديدا فى ٣١ يوليو ١٩٥٧ ) فترة اضطراب سياسى وعســكرى عم المنطقة كلها ، فكانت بمثابة فرصة ذهبية لهيكل حقق من خلالها ضربات صحفية قوية •

وكان نجاحه المتوالى عنصرا حاسما فى إقنـاع أصحاب الصحيفة بالموافقة على طلباته الخاصة بتطوير الأهرام شكلا ومضمونا • وبهذا تم إنشاء مقر جديد للأهرام بعد إيفاد لجان فنية وصحفية متعددة إلى كبريات الصحف العالمية ، لتسجيل كل جديد فى عالم الصحافة من التقنية إلى الإدارة ، وبعد أن تزايد إقبال القراء على الأهرام وما يصدر عن الدار من مطبوعات مختلفة فوصلت أرباحها فى عام ١٩٦٨ إلى أربعة ملايين جنيـه •

وقد عد المقر الجديد للأهرام من أضخم دور الصحافة فى المنطقة ، وكانت عملية انتقال الجريدة إلى مقرها الجديد غاية فى الإحكام ، حيث استفادت من تجارب سابقة لصحف عالمية انتقلت إلى مقار جديدة دونما خلل أو تأخير فى إصدار الصحيفة ، حتى أن كل محرر وموظف وعامل وجد مكانه الجديد صبيحة يوم الانتقال فى غير اضطراب • وبلغت دقة التخطيط فى تطوير الصحيفة وإقامة مقرها الجديد إلى درجة ترك مساحات شاغرة لمطابع حديثة ترد فى المستقبل ، بحيث تستوعب تلك المساحات الآلات والمـاكينات الجديدة ، وتم ذلك بالفعل فى أوائل الثمانينيات ، حينما وردت هذه الآلات وجرى تركيبها فى الأماكن المعدة لها سلفا •

ولم يقف هيكل فى تطويره للجريدة عند هذا الحد ، بل طعم هيئة التحرير بعدد كبير من المثقفين والشباب ، واستقطب كبار الأدباء والكتاب

والفنانين للكتابة فى الأهرام ، ومن بينهم ــ على سبيل المثال لا الحصر : توفيق الحكيم ، الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، نجيب محفوظ ، الدكتور يوسف إدريس ، الدكتور زكى نجيب محمود ، صلاح طاهر ، أحمد بهاء الدين ، الدكتور لويس عوض ، بالإضافة إلى عمد الفكر والثقافة والأدب العربى المعاصر . كما أقام هيكل مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية كمركز متخصص فى الصراع العربى الإسرائيلى ، والذى اعتبر استجابة حضارية وعلمية لهزيمة يونيو ٦٧ ، وجعلت تبعيته للأهرام على غرار ما هو حادث فى كبريات الصحف العالمية ، وبعد استبعاد فكرة تبعيته للجامعات أو لرئاسة الجمهورية ، من أجل تلافى الآثار البيروقراطية أو الهيمنة الأيديولوجية على العمل البحثى المفترض أن يقوم به المركز ، وقد انضم إلى هذا المركز عدد كبير من الخبراء فى مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وحتى العسكرية . كما أنشأ هيكل مراكز أخرى متخصصة تتبع الأهرام منها : مركز الحاسب الآلى ، ومركز التنظيم والميكروفيلم ، ومركز الدراسات الصحفية ، وغيرها .

وكل ما سبق ــ وغيره كثير لم تتعرض له ــ جعل من الأهرام فى عام ١٩٧٠ أقرب ما تكون إلى الصحيفة العربية العالمية « الوحيدة » ، وارتقى بها إلى المرتبة التاسعة فى قائمة الصحف العالمية ، حتى أن مكتبة الكونجرس ــ وهى أكبر مكتبة فى العالم ــ تحتفظ بأفلام ميكروفيلمية لأعدادها . وليس هناك شك فى أن كل ذلك يعود إلى شخصية هيكل وأفكاره وطموحاته ، وهو قول لا ينافى الحقيقة ، والقائل بنقيضه مطالب بتفسير تراجع الأهرام وانحدارها بعد غياب هيكل عنها بقرار من الرئيس السادات ، فى الثالث من فبراير ١٩٧٤

بيد أن ابتعاد هيكل عن الأهرام ، وما تبع ذلك من إجراءات اتخذت ضده وحملات استهدفته ــ تعد ، بمقياس الخرافة الدينية التى أشرنا إليها ، ردة وخروجا ، فالسدنة والحراس هم ذواتهم الذين ثاروا على آلهتهم التى صنعوها بأنفسهم ، ولم تقل لهم هى أنها آلهة تستحق العبادة ،

وهم الذين شرعوا فى هدم البناء الذى تصوروه بأوهامهم معبدا ، ولم يكن فيه من ملامح العمارة ما يشير إلى ذلك ، وهم الذين راحوا يسبون آلهتهم ، ويحطمون الزمن الذى تعبـدوا فيه لهـا ، وقد عاشوا خلاله « دراويش » ، لكنهم حلقوا لحـاهم ــ بعـد أن انقضى زمن الزيف والدجل ــ وشقوا الجلاليب وخلعوا المراكيب ، وتطيبوا ، ثم شمروا عن سواعدهم وحملوا معاول أمدهم بها رائدهم ، الذى دعا إلى نبذ هـذه العقيدة وتوحيد الأديان ، ووصف البنـاء الآمن بأنه حزب سرى بديل وأخطبوط له أجهزته ومؤسسة خطيرة ذات أجهزة غربية شيطانية ، وبدأ فى بناء مجمع للأديان كلها تحت شعارات حرية العقيدة والسلام الاجتماعى والأمن والأمان . وخلال هذه الممارسة الدموية ( إذ كانت تستهدف ذبح عهد بكامله على عتبة الرئيس ) انهالت النعوت على هيكل ( باعتباره أولا رمزا لذلك العهد ) فوصفوه بأنه « الأوحد » و « الكاهن » و « المبشر » بالهزيمة والصحفى « الكذاب » ، وأثاروا حوله ضجة كبرى سعت إلى النيل من سمعته ووطنيتـه ، بدعوى أنه كان يحجر عليهم ويزيحهم عن المساحة ويقطع عنهم تواردات الوحى !

والواقع أن السلوك المسجل لهؤلاء على مدى هذه الفترة هو الذى أدى إلى التصفية ، بحيث لم يقدر على الاحتمال والبقاء فى موقعه سوى هيكل ، ذلك أن معطيات الفترة كانت تسمح للكافة بإقامة معابد مقدسة لعبادتهم ، لكنهم لم يفعلوا ، بل أخذوا يتحسرون على ذلك الزمن الذى جعل الصحافة حكرا على هيكل وحده ، وبالممارسة صـدقوا أنفسهم وارتاحوا لخيالاتهم ، ومالوا إلى الخمول والاسترخاء ، واجتهـدوا فى التسبيح ، وأسرفوا فى الطهارة وكأنهم عابدون فى معبد لا يقدر أحد على اجتياز عتبته واطئا إياها .

وللحق فإننا نلتمس العذر لهؤلاء فيما يتعلق باعتقادهم الأسطورى السالف ، مرتكنين فى ذلك إلى أسباب ومبررات عديدة : فالأستاذ هيكل ــ مهما اختلفت حوله الآراء ــ ظـاهرة صـحفية لا تتكرر إلا قليلا ،

ولا يستطيع أى صاحب قلم أن ينكر أن هيكل كفـاية صحفية وفكريه نادرة ، يمتلك طاقة عقلية وثقافية وتحليلية هائلة ، وقلما فريدا له أسلوب طيع جذاب ، بما جعله يتبوأ مكانه الفكرى والصحفى عن جدارة ــ وفوق ذلك فإن هيكل رغم وصوله إلى القمة ظل متمسكا بمقومات الصحفى : فهو لا يستنكف من كتابة خبر صغير فى سطور ، وقد يجرى وراء الخبر ويبحث عنه ويتحراه . هو كمخبر صحفى كان يبهره الخبر وتلمع له عيناه إذا كان مهما ومثيرا ، يحركه فى ذلك حس صحفى خاص يجعله يرى فيه ما لا يراه الآخرون . وهو كرئيس تحرير كان يعرف تمـاما المقـومات الشخصية للعاملين معه ، فإذا طلبت إليه أن يجرى عملية فرز نوعى للجماعة التى تعمل معه ــ يستطيع برسم بيانى أن يحدد أبعاد كل فرد ونوعيته ، ويضع فى كل خانة القدرات الصحيحة له دون مشقة أو عناء ، وفى نفس الوقت فإنه لا يخفى تقديره لأصحاب المواهب الصحفية ، بل يشيد بهم ويفرح لرؤيتهم ويدللهم ويهتز لحديثهم ويعطيهم من الفرص ما لا يمكن أن تتهيأ لغيرهم . ولا يستطيع أى معارض لأفكاره إلا أن يعترف بأنه نموذج مثالى فى مجتمع يزدحم بطـلاب الثروة والجـاه من النفعيين والانتهازيين ، ممن وضعتهم الأقدار فى مكان الصدارة ، فقد انتصر على نفسه وداس على كل وسائل الإغراء الاجتماعى والغريزى ، من أجـل الحفاظ على سمعته كركن من أركان النظام الثورى . وفى مقاله الأسبوعى الذى كان يكتبه فى صحيفة الأهرام تحت عنـوان « بصراحة » تتمثل شخصية الصحفى إلى جانب سمات الكاتب ، وتتكامل عدة عناصر فى المقال لم تكن توجد فى غيرها من مقالات الكتاب الآخرين ، وكل مقـال بين مقالاته تلك لم يكن ليخلو من فكرة جديدة يعمد إلى مناقشتها وحده ، ويجرى حولها حوارا مع نفسه ، ويسوق الأدلة على نجاحها أو فشلها ، ويحدث عملية تفاعل بين وجهة نظره وبين الرؤية العربية المتعلقة بحيز هذه الفكرة فى الساحة العربية . ويلزم هنا أن نكرر صراحة أن المناخ السياسى الذى كان يظلل هيكل قد أتاح له فرص النجاح والظهور والشهرة كما أتاحها لغيره من أصحاب الرأى والفكر والقلم ، حتى أن بعض هؤلاء وصل

فى بداية سيادة هذا المناخ إلى منزلة لم يصل إليها هيكل ، لكن موهبته الخلاقة استطاعت أن تدفع به سريعا إلى المقدمة فى ظل مناخ يناسب طبيعته ، يضاف إلى ذلك قدرته على الحركة ومثابرته على متابعة الأحداث وتميزه بالجرأة والشجاعة والانطلاق .

وعلى الساحة العربية اتجهت أنظار المراقبين والمتابعين للقضايا العربية المختلفة إلى هيكل فرأوا فيه « داعية » جديد يهز مقاعد الحكام الفاسدين ، ويتناول مواطن الأدواء والعلل بقلمه الحاد ـ فآمن كثير منهم بدعوته ، وساهموا بقدر ما فى التبشير والدعوة إلى الفكر الثورى المتمقل الذى يعبر عنه هيكل بقلمه ، والذى تتحرك مع صليله جموع الجماهير العربية الحاشدة نحو مواقع تجار السياسة المضللين ( يستوى فيها كسر وفتح اللام الأولى ) لاستئصالها ، وفى اتجاه مؤسسات الحكم العفنة التى تكمم أفواه المحكومين ، لسحقها وإزالتها . وقلة من الجماهير العربية ـ رغم إيمانها بخطورة قلمه وقدرته ـ كانت تعارض اتجاهاته ، وتأخذ عليه مآخذ متعددة من أبرزها : اتهامها له بأنه يوقعها فى تناقضات وطنية ـ أما المسئولون عن الصحف فى الأقطار العربية فقد نظروا إليه ككاتب قد أحدث فى فن المقال السياسى كثيرا من الابتكارات والابداعات ، وإن كان بعضهم لا يصدر هذا الحكم علانية ، بل يسوقه مضطرا ومع كثير من التحفظات فى محاولة للتهوين من خطره كمنافس يعتد به فى حقل الصحافة ، والكثير من الصحف العربية التى كانت معروفة بخطها المعارض للقاهرة عرضت عليه نشر مقاله الأسبوعى فى وقت واحد مع جريدة الأهرام ، لكنه رفض جميع هذه العروض ، باستثناء العرض الذى قدمته إليه جريدة الأنوار اللبنانية ! أما الحكام العرب فقد كانوا يتطلعون إلى قلم مثل قلم هيكل ، وكانوا يودون ـ وقد افتقدوا ذلك ـ أن يستميلوا قلمه وفكره إليهم ، ومنهم من كان يأخذ عليه تعاليه وتجاهله لدوره الثورى ، وتقصيره فى إبرازه لدى الجماهير العربية ، وينعى عليه انحيازه للاقليمية .

وفى الأوساط الأجنبية تلقفت الدوائر الصحفية والإعلامية هيكل باعتباره « دعوة » جديدة من تلك التى اعتادت أن تقذف بها ريح الشرق على مر العصور ، وأحدث هيكل فى هذه الأوساط ضجة كبيرة ، فكانت وكالات الأنباء تتلقى مقالاته مع « تباشير » الفجر ، لتطيرها إلى مختلف دول العالم حيث تمثل مكانا بارزا فى كبريات الصحف والمجلات العالمية . وبنفس الرؤية تعامل اليهود مع الصحفى المصرى الكبير ، لكنهم — على نقيض عادتهم التاريخية من محاصرة كل دعوة جديدة والعمل على تقويضها — ربما كانوا أكثر الناس حماسة لانتشار تلك الدعوة وازدهارها ، ذلك أن النتائج التى تترتب على هذا تعد عاملا مساعدا وبدرجة كبيرة فى استكمال الصورة التى يحرصون على التقاطها دائما للموقف فى مصر ، ويدعم الاعتقاد السابق أنهم كانوا يدرسون ويحللون باستمرار واهتمام كل ما يكتبه هيكل ، وكانت تقوم على هذه العملية جميع المؤسسات المخصصة والمعنية والقادرة على هذه الأمور .

وبقدر الحجم الذى يمثله هيكل ككاتب صحفى بقدر ما كانت المعارك الصحفية التى خاضها على مدى فترة ممارسته للمهنة ، وبقدر هذا بقدر ما أثارت كتاباته الكثير من الجدل ، ونذكر فى هذا المجال مقاله الشهير : عبد الناصر ليس أسطورة (١٩٧٠/١١/٦) والذى سنتعرض له فيما بعد ، ونذكر أيضا مقاله الذى نشر فى الأهرام تحت عنوان : القنبلة (١٩٧٣/١١/٢٣) والذى تناول فيه بالحديث القدرة الذرية لإسرائيل ، وأوضح فى بدايته أن حافزه على تناول هذا الموضوع كان تأكيدات جديدة لمعلومات سابقة وصلت إليه ، خلال مناقشة مع **زائر امريكى واسع الاطلاع ومتين الصلة بمصادر صنع القرار السياسى فى الولايات المتحدة الامريكية ،** ثم بدأ بعد ذلك فى شرح الأسباب التى دعت الولايات المتحدة لفتح ترساناتها العسكرية لإسرائيل فى أكتوبر ٧٣ بغير حساب ، وقال أن أحد الأسباب القوية لهذا الفعل كان العصبية والجنون والتوتر الذى شاب طلبات الإسرائيليين للامدادات والتعويضات إبان الحرب . وذكر هيكل أن عضوا

من أعضاء لجنة التسليح فى مجلس الشيوخ الأمريكى علق على ذلك بقوله : إن أخشى ما أخشاه أن يفقد هؤلاء الناس فى تل أبيب أعصابهم ثم يلجئون إلى استخدام واحدة من قنابلهم الذرية الثلاث لردع الهجوم العربى ، وليس يهمنى ما يحدث للعرب ، ولكن أخشى أن أى انفجار ذرى فى هذا الوقت سوف يضع العالم على شفا كارثة دولية رهيبة • وبعد ذلك أكد هيكل أن هناك تقارير متعددة المصادر تتحدث عن القدرات الذرية الإسرائيلية ، وذكر منها تقارير معهد التسليح فى استكهلم S.I.P.R.I. وتقارير معهد الدراسات الاستراتيجية فى لندن ، وقال إن محاولات إسرائيل لامتلاك قنبلة ذرية بدأت فى أعقاب حرب السويس حيث قدمت لها فرنسا مفاعلا ذريا قادرا على استخراج كمية كافية من البلوتنيوم ، وتمكنت من بناء مفاعلها المعروف فى ( ديمونه ) قرب بئر سبع والذى بدأ نشاطه يلفت الأنظار فى السنوات الأولى من عقد الستينيات ، كما نبه هيكل إلى أن وجود قنابل ذرية لدى إسرائيل ليس رعبا تتركه ليخلع قلوبنا ، ولكنه احتمال يجب أن نستعد له بمقابلة الخطر وليس الهرب منه •

ونذكر من هذه المقالات أيضا ــ كيسنجر وأنا ، والمنشور فى جريدة الأهرام (٢٩/١٢/١٩٧٢) وفيه تناول هيكل تفاصيل محاولة ترتيب لقاء بينه وبين هنرى كيسنجر خلال شهرى مايو ويونيو من عام ١٩٧١ ، والتى تمخضت عن لقاء تم بين هيكل ، ورونالد كاندل رئيس مجلس إدارة شركة بيبسى كولا وكان صديقا مقربا للرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون الذى عمل محاميا لهذه الشركة لسنوات طويلة • وقد تم هذا اللقاء نتيجة جهود بذلها المحامى المعروف الدكتور زكى هاشم بناء على رغبة أبداها كاندل ( كان موجودا فى القاهرة فى إطار جولة قام بها فى الشرق الأوسط فى ذلك الحين ) فى أن يسمع عن أزمة الشرق الأوسط ويتفهم وجهة النظر العربية إزائها ، ولذلك قام الدكتور هاشم بالاتصال بهيكل من أجل أن يسمع كاندل من هيكل بالذات ، إذ خطر له ــ كما يقول هيكل فى مقاله ــ أن

يحقق كاندل رغبته بمساعدة هيكل ، وقد نقل الدكتور هاشم إلى هيكل هذه الرغبة موضحا له أن اللقاء سيكون مع صديق مقرب لينكسون وليس مع رجل أعمال ، لأنه يعلم حساسيته الزائدة من رجال الأعمال • ويقول هيكل فى مقـاله كيسنجر وأنا ، أنه أجاب الدكتور هاشم على هـذا التوضيح بقوله : أنه واحد من الذين يعتقدون أنه لا يحق لنا أن نكف عن شرح وجهة نظرنا لكل من يريد أن يسمعها ، ويظن أننا نكسب بذلك دائما ولا نخسر أبدا • واستطرد هيكل أنه تلقى فى ٨ يونيو ١٩٧١ خطابا من كاندل أعرب فيه عن سعادته للقاء الذى تم بينهما فى حضور الدكتور هاشم ، وأبدى فيه تأثره الجم من معرفة هيكل العميقة والمباشرة لمشاكل الشرق الأوسط ، واستعراضه للعوامل التى تداخلت فيها ، بما فى ذلك الدور الذى لعبته الولايات المتحدة الأمريكية والنصيب الذى ينبغى أن تسهم به فى حل المشـكلة • وذكر هيكل فى مقاله أن خطاب كاندل إليه تضمن دعوة لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية يقوم خلالها كاندل بتنظيم لقاءات بين هيكل وبعض الناس الذين ينبغى أن تزداد معرفتهم بالوضع العربى والموقف الراهن فى الشرق الأوسط ، مؤكدا يقينه ( أى كاندل ) أن مثل هذه الزيارة سوف تدعم التأييد لوجهة النظر العربية وتعود بالنفع المتبادل على العلاقات المصرية الأمريكية •

وذكر هيكل أن كاندل أوضح له فى نفس الخطاب أنه التقى بالرئيس نيكسون بعد عودته من رحلته فى الشرق الأوسط ، وأنه ذكر له بإسهاب خلال اللقاء تفاصيل النقاش الذى جرى بينه وبين هيكل وأبلغه عزمه على دعوة هيكل لزيارة الولايات المتحدة وقال هيكل أنه عرف بعد ذلك أن الرئيس نيكسون أخبر كاندل عن الأحاديث الطويلة التى جرت بينه وبين هيكل حينما كان يتابع الأخير معركة انتخابات الرئاسة الأمريكية فى عام ١٩٥٢ ، وأخبره أيضا عن الأمسية التى قضياها سويا عام ١٩٦٢ فى القاهرة ، والتى حاول فيها هيكل أن يشرح له دور إسرائيل والطريق المسدود الذى تسير إليه تاريخيا فى المنطقة • وقال هيكل أنه علم أن الرئيس نيكسون

قد رحب بزيارته لواشنطن على أساس أن يدور حوار بالعمق ــ على حد تعبير الرئيس نيكسون ــ بين مستشاره لشئون الأمن القومى : هنرى كيسنجر وبين هيكل ، كما أوضح هيكل فى مقاله ان كيسنجر كان قد حضر جزءا من لقاء نيكسون وكاندل وأبدى رغبته فى مناقشة وجهة النظر العربية مع طرف يمثلها ، ولكنه أوضح أنه لا يريد أن يناقشها مع مسئول رسمى أو موظف ، وإنما يؤثر أن يستكشفها من خلال نظرة استراتيجية أوسع وأضاف أنه يتابع بعض ما كتب هيكل ، وأنه على استعداد للمناقشة معه .

ويواصل هيكل فيقول : أنه تلقى رسالة خطية بعد ذلك من السفير أشرف غربال القائم بأعمال المصالح المصرية فى واشنطن ، ولا علاقة بحديث الدوائر المحيطة بالبيت الأبيض عن فكرة اجتماع بينه وبين كيسنجر ، فى مزرعة يملكها كاندل وفى جو بعيد عن الرسميات . وبحيث تكون هناك فرصة واسعة للحوار ، على أن يكون الموعد الأسبوع الأول من أكتوبر ١٩٧١

ويذكر هيكل بعد ذلك أن الرئيس السادات اتصل به وقال له بالحرف الواحد : يبدو وقد تأكد ذلك من خطاب السفير محمد حسن الزيات إلى الدكتور محمود فوزى ( أن كيسنجر يريد أن يقابلك ) ، وأن الرئيس السادات أكد له بلهجته **الودودة** أن هذه فرصة تساوى أن نستغلها ، ورأيى أن تذهب وأن تتكلم وأن تسمع .. إن كيسنجر هو الرجل الذى يحل ويربط فى البيت الأبيض الذى هو مصدر السلطة ومصدر القرار ، وأنت تعرف كل شىء وعشت الأزمة من الداخل ..

وفى نهاية المقال يقول هيكل أنه بعث برقية بالتأجيل (*) ويؤكد أنه

---

لقد مر هيكل تجربة مماثلة مع الزعيم خروشوف .

(*) يذكر هيكل فى الأهرام فى ٢٩ ديسمبر ١٩٧٢ أنه كان فى صنعاء أوائل مايو ٦٤ ، ليشهد على الطبيعة بعض معارك قواتنا هناك ، وخلال =

من كل ما روى فى مقاله لم يقصد التعالى على كيسنجر ، لأن هذا أمر لا يمكن أن يفعله عاقل وطنى : فقد قضى شواين لاى إحدى عشرة ساعة فى اجتماعات متصلة وسرية مع هنرى كيسنجر ، كما اجتمع الزعيم السوفيتى بريجنيف معه سبع عشرة ساعة متصلة ، وليس من شك فى أن هنرى كيسنجر أستاذ بارز من أساتذة العلوم السياسية والتطبيق العملى السياسى ، وأنه واحد من الذين سوف يتركون بصمات أصابعهم على هذا العصر مهما كان خلافنا فى الاتجاهات معه .

أما أكثر مقالات هيكل إثارة للجدل بل وأكثر من الجدل فهو مقاله الأشهر : تحية للرجال ، والذى نشر فى جريدة الأهرام (١٢/٣/١٩٧١) وفيه استعرض هيكل مبلغ الصعوبات التى ستواجهها القوات المسلحة المصرية فى معركتها المصيرية لاستعادة الأرض المغتصبة ، فبدأ قائلا أن القوات المسلحة المصرية فى معركتها المصيرية لاستعادة الأرض المغتصبة ، فبدأ قائلا إن القوات المسلحة المصرية ستواجه معركة من أصعب معارك التاريخ .. وعلينا أن تتمثل أمامنا طبيعة الأرض التى قد يجد الجيش المصرى نفسه أمامها ، ثم ما أقامه العدو من مواقع على هـذه الأرض استغلالا لطبيعتها وأوضح أن أولى هذه الموانع تتمثل فى قناة السويس التى تعد مانعا مائيا خطيرا يعتبره ثقات العسكريين فى الغرب والشرق واحدا من أهم الخطوط الدفاعية الطبيعية فى العالم .. وبين بعد ذلك العوائق الطبيعية والمصنوعة التى تقف عقبة كئود أمام قواتنا ، والتى لم يشهد تاريخ الحروب

---

= وجوده هناك اتصل به الصديق : اليكسى ادجوبى رئيس تحرير صحيفة برافدا وصهر خروشوف وقال له : إن الرجل الكبير قادم إلى مصر ولديه أسئلة كثيرة يريد أن يسمع عنها ، وأنه لا يعتقد أن التقارير تستطيع أن تقدم له ما يريد من إجابات ، وذكر له اليكس أنه اتفق مع خروشوف على أن يحضر هيكل إلى موسكو وان يقضى فيها معه أياما ثم يعود إلى مصر على نفس الباخرة التى ستحمل خروشوف إلى الإسكندرية . ويروى هيكل أنه أفطر يومها فى صنعاء وتناول الغداء فى القاهرة مع عبد الناصر وكان عشاه مع اليكس ادجوبى فى موسكو .

لها مثيلا ، مشيرا إلى الكثبان الرملية الواقعة على الشاطىء الشرقى للقناة التى تجمعت وتراكمت بفعل الظروف الطبيعية وبما أضافته إليها عمليات التطهير المستمرة للقناة ، وإلى ما أقامه العدو من خط دفاعى أمامى على حافة المياه مباشرة وهو خط بارليف ، تعزيزا لدور المـانع الطبيعى ، وألمح هيكل إلى أن إسرائيل أنفقت على بناء وتدعيم هذا الخط ما يزيد على ثلاثين مليون جنيه استرلينى • ونوه إلى أن الحرب العالمية الثانية شهدت عوائق مائية كنهر الفولجا فى الشرق ونهر الراين فى الغرب ولكنهما لم يرقا إلى قناة السويس لا من ناحية العمق ولا من ناحية العرض ، وإلى أن هذه الحرب شهدت خطوطا دفاعية حصينة مثل خط ماجينو وخط زيجفريد لكنهما لم يكونا واقعين على حافة مانع مائى •• وبعدها أكد هيكل أن الرجال سوف يواجهون بعد خط بارليف بمنطقة الرمال المفتوحة والمحصورة بين كثبان الرمال ومرتفعات منطقة المضائق ، والتى لا تبعد عن القنـاة بأكثر من ثلاثين كيلومترا وتعد منطقة عمل لمدرعات العدو ، وأوضح أن الصدمة الأولى ضد قوات العبور ستكون من خط بارليف الذى يعـد مصفاة : من ينفذ منهـا تتلقاه قوات المدرعات فى المنطقـة المفتوحة •• وأضاف هيكل فى مقاله : تحية للرجال — أن من تكتب له النجاة بعد ذلك سيجد أمامه منطقة المضائق وهى خط دفاعى طبيعى آخر عبارة عن سلسلة جبال متشابكة تسيطر على المنطقة المفتوحة تمـاما ، وقال إن الصحراء المكشوفة بعد المضائق وحتى حدود مصر الدولية يسيطر عليها العدو تماما بالطيران ويعتبرها أيضا عمل لمدرعاته •• وحتى تكتمل الصورة أكد هيكل أن الجيش المصرى سوف يواجه المعركة وحده ، وسوف يواجه الجيش الصهيونى بأكمله •• ولم تفته الإشارة إلى رحيل عبد الناصر ، فقال إن الدنيا كلها اهتزت لرحيله وخاصة رجال الجبهة الذين كانوا ينظرون إليه باعتباره رجل المعجزات القادر على تحريك عوالم بأكملها •• ونبـه فى ختام مقاله إلى ضرورة مراعاة إطـار التوازن الدولى قبل اتخـاذ قرار القتال ، موضحا أن أحدا لا يستطيع تجاوز هذا الإطار بسهولة •

وبعد صدور المقال بما احتوى من معلومات دقيقـة لا يعلمها إلا العسكريون المطلعون ــ اتجهت الأنظار إلى اللواء حسن البدرى أستاذ التاريخ العسكرى فى القوات المسلحة ورئيس الوحدة العسكرية فى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية فى الأهرام ، وكان تعليقه أن هيكل لديه مصادر كثيرة ومتنوعة بحكم موقعه وخبراته واتصالاته الموسعة . والأهم من مسألة الدور الذى لعبه اللواء البدرى فى خروج هذا المقـال إلى النور هو الأثر الذى أحدثه المقال بين رجال القوات المسلحة ، والذى قيل انه كان مدمرا وخطيرا ومؤثرا فى خفض الروح المعنوية لهم ، فأعربوا عن غضبهم ورفضهم القاطع لآراء هيكل الهدامة ، وقاموا بتمزيق الجريدة وداسوها « بالبيادة » وطالبوا بإقالة هيكل بدعوى أنه غير ملتزم يبدى آراء تدعو إلى الخنوع والاستسلام بدلا من القتال والاستبسال . وانبرت الأقلام الظامئة فى مهاجمة هيكل ومحاولة النيل منه ، وتبارت فى انتقاء أماكن الطعن القاتلة ومواضع الضربات المؤثرة ، وخرجت مقالات ومقالات تحت عناوين مبهرة من بينها : تحية مردودة من الرجال ، لعبد الهـادى ناصف والمبشرون بالهزيمـة ، وغيرها . وفى المقال الأخير الذى نشرته الأخبار (٢٢/١٢/١٩٧٢) كتب الأستاذ موسى صبرى يقول : « .. إن هيـكل يستغل أجواء الديمقراطية لكى يبشر بالهزيمة ويشيع اليـأس والبلبلة والتشكيك بين الجماهير التى تعد نفسها لقتال المصير ، ويسعى فى وضح النهار إلى تدمير معنويات المقـاتلين فى جبهة الحرب وتفتيت نفوس الجماهير الكادحة المساندة بكل قواها لأبطالها على أرض النار موحيا لها بأنه اللسان الرسمى المتحدث باسم الدولة .. » .

وبهذا بات ما تعرض له هيكل أثر نشر مقاله هذا كما لو كان بوادر الخروج على عادة تقديس العتب ، وصار كإعلان موسع عن استباحة حرمة الآلهة ، وعد بمثابة الهجوم الذى يسبق العاصفة ( يلاحظ من العبارات الواردة أعلاه من مقال موسى صبرى أنه كان « راصدا » لأخبار العاصفة قبل هبوبها بزمن ) والتى لم تمر وقت طويل حتى هبت على المعبد ومن

فيه فاقتلعت أعمدته ، ودمرت تماثيله البرونزية ، وهوت بأبراجه الشامخه . ومحت من الأذهان قصصا كثيرة ترتبط بالصور التى كانت معلقة على جدرانه ، وطوحت بالمحراب الذى كان مسجلا عليه كل التفاصيل الخاصة بالتعاليم وطرائق التعبد وأسرار العبادة ! وقد تدرج مجىء العاصفة ، فكانت تتحرك بسرعة متدرجة وصلت الذروة فى أواخر النصف الثانى من السبعينيات . وقبل اغتيال الرئيس السادات بشهر واحد بلغت العاصفة نقطة الكفر المطلق حينما اعتقلت الجهات الأمنية هيكل فى سبتمبر ٨١ ، وأعلن ترزية النظام وقتها عن سقوط الآلهة نهائيا ، وحملوا شعار توحيد الأديان ، وأصبح الكفر بالتعاليم ليس كافيا لشفاء الغليل بل وقف البعض يصفق بحرارة للقوى الخفية « غير المنظورة » التى استطاعت منع هيكل من الكتابة ، لأنه خدع الجماهير بأكاذيبه فى الماضى ويريد اليوم أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء .

وفى هذا يقول هيكل : « ... لقد مرت فترة طويلة لا أظن أننى غبت فيها عن الواقع بشكل كامل ، فعندما تركت الأهرام لم أغب ، وعندما بدأ الرئيس السادات يهاجمنى كنت حاضرا ــ وإن كان الحضور من خلال التعرض للهجوم ، وعندما جرت إحالتى إلى المدعى العام الاشتراكى للتحقيق معى كنت حاضرا أيضا ، لم يكن هناك غياب أو تغيب ، لكن الذى كان مغيبا هو الكلمة .. وكلمتى كانت تتسرب عن طريق كتبى ولكن على نطاق ضيق .. اننى كشخص لم أغب وإن كانت الكلمة هى التى غيبت وجرت عملية تقييم حول ما أمثله وما أقوله إلى جانب بعض محاولات التشويه .. » .

والواقع أن الهجوم على هيكل أخذ من الأبعاد أكثر مما يستحق ، وأن الحملات التى وجهت ضده ارتبطت بقضايا سياسية معينة ، فتحول الأمر بذلك إلى صراع مواقف وليس تقييم كاتب ، مما دفع هيكل إلى حمل قلمه من أجل الإدلاء بشهادة حق فى مواجهة الذين أرادوا أن يحولوا ثورة يوليو بكاملها إلى مجرد معتقلات ، وعلى حد قوله : « .. لم يكن

ممكنا أن تغتاب كل هذه الناس عبد الناصر وأنا صامت ، كان لابد من قول شيء ما •• » • ومن جانب آخر رد هيـكل على من وصفوه بانه الكاتب الأوحد بقوله : أنه صنع تاريخـه الصحفى فى ميادين القتـال وبالقرب من براكين الثورات والانقلابات ووسط الأحـداث والوقائع الكبرى • وفى إطار هذه الشهادة دعا هيـكل إلى تحويل الحمـلة على عهد عبد الناصر إلى مناقشة عامة ، وإلى تحقيق وتدقيق يفتش فى كل ركن ويقلب كل حجر ، وقال : إن علاج هذه الحملة ليس وقفها ومصادرتها بل كشف الحقيقة كاملة وتسليط الأضواء على الساحة كلها •• وذكر أن عبد الناصر سيبقى أهم شخصية فى تاريخ العرب الحديث ، بينما سيبقى الذين يحاولون الهجوم عليه اليوم أقصر قامة لا يستطيعون مطاولته ، ولذا يحاولون هدمه لكى يظهروا أكبر حجما من الأنقاض التى يتصورون أنها ستبقى منه •• وأكد أن الناصرية ستبقى هى الأخرى تيار التطور الحتمى بصرف النظر عن أى خطأ أو أخطاء فى الممارسة ، لأنها حاولت أن تعطى إجابات صحيحة عن تحديات حقيقية واجهة الأمة العربية والإنسان العربى مع مطلع النصف الثانى من القرن العشرين •

ورغم كل ما حدث ، وبصرف النظر عن كل ما قيل وكتب ــ فلقد بات من مسلمات الوعى العربى أن هيكل بمفرده مؤسسة صحفية وعلمية قائمة بذاتها ، ترتبط بالأرض وبواقع مصر العربى وتنحو إلى الأمام ، لتستكشف آفاق المستقبل بكل ما يحمله لمصر والعرب من تحديات • ولا شك أن مصر فى ١٩٧٥ لم تخسر كاتبا صحفيا كبيرا تعد الصحافة بالنسبة له هواية ومهنة وهوية فحسب ، بل خسرت أيضا رجلا من رجال السياسة له تجاربه وآراؤه التى كانت لها أهميتها فى فترة كانت تحتاج إلى حسابات دقيقة •

وعندما أعلن عن عودة هيكل للكتابة قامت الدنيا ، وثارت حملات من الغبار المسموم من اتجاهات عديدة ، وحدثت ضجة هائلة ، وأطلقت الإشاعات ، ذلك أن عودته من وجهة نظر هؤلاء كانت تعنى إقامة راس

جسر لعبور الفلسفة القديمة ـ التى بارت بضاعتها ـ إلى وجدان الجماهير ، واستعادة هذه الفلسفة لترابها المغتصب ! لكنه عاد ليثرى الصحافة المصرية ولم تعد هى .... عاد رغم .... ، ليثبت حقيقة كونه شخصية صحفية لها وزنها السياسى الذى يحسب له ألف حساب ، وليقيم الدليل القاطع على أن ابتعاده لم يؤثر على هذا الوزن .

وأخيرا ، فقد ربح هيكل الاستفتاء الصامت الذى نبه إليه الأستاذ مصطفى أمين فى عموده اليومى فى جريدة الأخبار (٢٨/١٢/١٩٨٥) ، ربحه ولم يخسره ، وربحه بنسبة كبيرة لا ترقى بالطبع إلى نسب الأزمنة الغابرة ، ربحه لأنه ظهر أمام الجماهير فارسا وحيدا يواجه عشرات من المعارضين الذين يحتمون بسلطات ومناصب كبيرة ، ربحه هيكل لأنه أظهر حقيقة ما يخشاه هؤلاء وذلك هو الفكر الذى يعبر عنه هيكل والرمز الذى يمثله .

إن تاريخ هيكل الصحفى منذ بدايته الأولى فى الصحافة وحتى عودته إلى الكتابة أسطورة تستحق التسجيل لتتعرف الأجيال القادمة كيف يصوغ المضللون الديانات وينظمون لها الشعائر والعبادات ثم ينقلبون عليها ويفكرون بكل ما فات ، إعمالا للمثل الشعبى السائر : اللى فات مات !


ذو نواس الرئيس



يروى الدكتور محسن عبد الخالق فى مجلة صباح الخير القاهرية (١٦/٢/١٩٨٦) أنه عندما قامت الثورة كان هيكل رئيسا لتحرير آخر ساعة ، أى أنه لم يكن محررا ناشئا أو قلما مبتدئا ، ورغم ذلك فإنه كان أول من يحضر إلى مكتب عبد الناصر فى الصباح الباكر ، ويغادره بعد أن يمشى عبد الناصر ، وعندما يأتى عبد الناصر بعد الظهر إلى مكتبه يجد هيكل فى انتظاره ، وهكذا . ويتابع الدكتور عبد الخالق روايته فيقول : إن وجود هيكل المستمر إلى جانب عبد الناصر مكنه من كتابة حديث صحفى مع عبد الناصر ( مقال عنونه هيكل بهذا العنوان ) وقد أثار هذا المقال دهشة عبد الناصر مما ورد فيه ، حتى أنه أعرب عن دهشته تلك بقوله : « ... هناك فرق رهيب وشاسع بين ... وباقى .... انهم دائما يسألوننى عن الأخبار الجديدة والمشروعات الجديدة أما ... فهو الوحيد الذى كتب ... ما لم أبح به وكان مجرد خواطر داخل رأسى ... يعرف ما يدور داخل راسى قبل ان اتحدث عنه ، إنه أحيانا يكتب ما أتمنى قوله أو حتى أفكر فيه ... وحده الذى يستطيع أن يوصل رسالتى إلى الناس ، لأنه يسكن داخل عقلى ... » .

والحقيقة أن التاريخ لم يسجل أن « ذا نواس » الملك الذى ينتهى عنده العصر « الحميرى » على أرض اليمن « السعيد » ــ قال مثلما قال ذو نواس « الرئيس » الذى ينتهى عنده العصر « الوحدوى » على أرض الوادى « التعيس » ! لكن القول السالف ربما يجبر التاريخ على إعادة النظر فيما أورده عن ذى نواس « الملك » الذى غلبه الأحباش وأخذوا منه اليمن ، والذى أقحم فرسه بعد هزيمته لجة البحر فمضى به ، وكان ذلك آخر العهد به !

فطبقا لما رواه الاخباريون العرب ، يعود السبب فى فتح الأحباش لليمن إلى الصراع الدينى على السلطة بين المسيحية واليهودية بعد اعتناق أسعد بن كرب (٣٨٥ ــ ٤٢٠ م) الديانة اليهودية ، وبعد أن دان أهل نجران بالديانة المسيحية ( نحو ٥٠٠ م ) ووقتها أصبح يوسف ذو المعروف

فى النصوص النصرانية باسم دميانوس ملكا لسبأ وريدان وحضرموت وغيرها ، وقد كان شديد التعصب لليهودية فقتل المسيحيين وأحرقهم فى النار • أما اليونانيون فيعزون الفتح إلى سبب تجارى مالى • ذلك أن اليمنيين لما تضعضعت أحوالهم بتقهقر دولتهم وخروج مقاليد التجارة من أيديهم ، كان الروم قد أخذوا ينشرون نفوذهم فى الشرق بواسطة النصرانية ، وتيسر لتجارهم المرور فى بلاد اليمن يحملون تجارة الهند إلى الحبشة ثم إلى مصر ، والعرب يشق ذلك عليهم ولا حيلة لهم فى منعهم ، فطفقوا يضايقونهم فى تسيارهم • ويظهر للقارىء أنه لا اختلاف مطلقا بين مغزى الروايتين المتعلقتين بأصل العداء بين العرب القحطانية فى اليمن والأحباش ، والذى بلغ ذروته فى هذا التاريخ ، وانتهى مرحليا بفتح الأحباش لليمن ، ومن ثم يمكن التوفيق بين الروايتين والأخذ بهما معا : ( ذلك أن اليهود يصكون منذ القدم مصطلح المواطن العالمى الذى لا ينتمى إلى وطن ، ولأنهم تجار والتجارة وسيلة عالمية لا تعرف الوطنية ولا الحدود ، وهم فى محاولتهم دعم هذا المفهوم امتهنوا الفلسفة ، وعن طريق التجارة فى وسائل النشر والإعلام نشروا المفاهيم التى تبدو تحريرية ليبرالية وهى فى الواقع « عملية » هدفها دعمهم كتجار ، والتجارة سيطرة اقتصادية وتقتضى السيطرة على التطورات الاجتماعية والسياسية)(*).

وعلى هذا النحو فلا يستبعد أبدا أن يكون هناك « حبر » يهودى عظيم سقط ذكره من مدونات التاريخ كان يقرأ أفكار ذى نواس « الملك » ويعرف ما يدور داخل رأسه قبل أن يتحدث به ، ويفصح دائما عما يتمنى أن يقوله ذو نواس أو يفكر فيه ولو كان مجرد خاطر ، أو كان هو الذى يدير هذا الرأس ويملؤه بالخواطر والأفكار • بيد أن ما ذكره عبد الناصر ينفى ولا ريب عن هيكل صفة مدرب الملوك ، ويضع العلاقة بينه وبين هيكل فى موضعها الصحيح •

---

(*) عبد المنعم الحفنى ، عالم بلا يهود ، مكتبة مدبولى ، القاهرة . ص ٢٦ و٢٧

لقد تناول الكثيرون العلاقة بين الرئيس عبد النــاصر والصحفى المرموق حسنين هيكل بحس مسرحى متفوق ، فبدت كتاباتهم كما لو كانت قطعا تمثيلية تعتمد على الخرافة والأسطورة ، وتصور مشاهد مبالغا فيها تمتع الأبصار والأسماع ، حتى صار تجميع هذه الكتابات المتفرقة بمثابة خلق لنص مسرحى ينتمى إلى مسرحيات الخيال المزركش ، لكن التحليل العقلانى لكل ما يتصل بطبيعة العلاقة بين عبد الناصر وهيــكل لا تجعل من هيكل قائدا لعقول الجماهير ، يوحى إليها بالثقة والاطمئنان ويسيطر عليها ، كما لا تجعل منه طبيبا يقيس نبض الرأى العام المتقلب حتى إذا ازداد النبض سرعة جذبه نحو المقصد ، ولا تجعل منه أيضــا كاهنا يلهم الرئيس الأفعال ويوحى إليه بالأفكار .

وهنا يسأل القارىء : ولم إذن استدعاء التاريخ على هــذا النحو المثير ( ربما ) ؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول : إن الأحاديث المطولة لهيكل عن علاقته بالرئيس عبد الناصر ، وما تخللهــا من تفاصيل بالغة الدقة ونقاط على درجة عالية من الحساسية والخصوصية ــ دفعت أصحاب الحس المسرحى المرهف إلى تصوير الأمر وكأن هيــكل هو الذى كان يصنع كل شىء ( باستثناء حرب اليمن وإغلاق خليج العقبة والممــارسة السياسية السيئة إبان حرب السويس ) وهكذا صار جديرا فى عرفهم بأن يدعى بكاهن الناصرية . والحقيقة أن أشد أنصار هيكل وكذلك المؤمنين بفكره لا يستطيعون دفع تهمة السعى شبه المقصود من جانب هيكل إلى هذه التسمية ، ذلك أن هيكل هو الذى كرر مقولة أنه لا يعبر عن رأى القيادة السياسية فى عهد عبد الناصر ! وهو الذى أعلم الجميع بأن الرئيس عبد الناصر كان يطلعه على أوراقه ويسمح له فى كثير من الظروف بصور منها ، وهو الذى اعتمــد وصف فؤاد مطر له فى كتــابه « بصراحة عن عبد الناصر » بأنه كبير الطهاة فى مطبخ السياسة المصرية فى عهد عبد الناصر ، والمتعهد الوحيد الذى يعد المسرح السياسى لعبد الناصر البطل التراجيدى للظاهرة الناصرية ، وهو الذى ترك الأقلام تتبارى فى وصف وتوصيف

علاقته بالرئيس عبد الناصر ، حتى قيل أنه لم يكن الصدى والظل لعبد الناصر بل كان الصوت والضوء .

كتب الأستاذ صلاح منتصر فى الأهرام (١٩٨٢/٥/١) وتحت عنوان : الأستاذ هيكل .. شاهد أم شريك ؟ : « ... كان صاحب أكبر علاقة عرفها التاريخ بين صحفى وحاكم .. والتعبير الذى أطلق عليه خلال فترة حكم عبد الناصر : الصحفى الأوحد ـ شاهدة تكتب له لا عليه .. إن عبد الناصر نفسه كان هو الذى يضع راسه فى راس هيكل ويغترف من معلوماته .. لقد وجد عبد الناصر نفسه فى سن الرابعة والثلاثين فجأة حاكما لأكبر وأغنى وأهم دولة فى المنطقة العربية ، وكانت طبيعة الصراع تحتم عليه أن يتعامل مع عالم مفتوح متشابك المصالح واللغات والأهداف.. وعندما ذهب الصحفيون والكتاب إلى عبد الناصر فى ذلك الوقت فإنهم ذهبوا ليأخذوا منه ، واحد فقط ادرك ان هذا الرجل فى حاجة إلى من يضيف إليه ويعطيه . وعندما ذهب إليه هيكل فإنه ذهب لا ليأخذ منه كما فعل زملاؤه الآخرون وإنما لكى يعطيه ويثرى فكره ومعلوماته . لقد كان عمل عبد الناصر هو الحكم ، وكان عمل هيكل هو القراءة والمعرفة ، وببساطة شديدة استطاع هيكل أن يجعل من نفسه دائرة المعارف الضخمة المتنوعة التى يسهل على حاكم مشغول بالحكم وصراعاته سرعة الاستفادة من معلوماتها . وفى وقت من الأوقات امتزج الإثنان معا : الحاكم والمفكر بحيث أصبح من الصعب التفريق بين فكر الحاكم وحكم المفكر ، لكن هيكل استطاع أمام عبد الناصر أن يعرف حدوده داخل إطار اللعبة تماما ، مما جعله يسيطر على طول قامته بالمقارنة إلى قامة عبد الناصر ، بحيث لا يجد عبد الناصر نفسه يوما فى مواجهة قامة أعلى منه أو منافسة له .. » .

ولنا أن نتصور أن الأستاذ صلاح منتصر عندما كان يكتب هذه الكلمات كان حاضرا فى ذاكرته خليط من التصريحات التى أدلى بها الأستاذ هيكل بخصوص علاقته بالرئيس عبد الناصر ، ومن بينها تصريحه الشهير بأن الصحفى لا ينفصل عن صانع القرار ولكن المهم ألا يكون

أداة فى يديه ، وتصريحه بأن اشتراكه فى اتخـاذ القرار أيام عبد الناصر شرف لا يدعيه وتهمة لا يدفعها ، يضاف إلى ذلك إذاعته لحقيقة أنه هو كاتب وثائق ثورة يوليو التى رسخت دعائم وأسس ومبادىء الثورة .

وبذلك يصبح هيكل مسئولا مسئولية جزئية عن جرة القلم التى تسقط الزعامات وتجعل من طائفة الكتاب الصحفيين ــ كمـا يريد أن يقول الأستاذ صلاح منتصر ــ حكماء يصنعون الزعماء ويحركونهم طبقا لأهوائهم ، وكذلك يعد مسئولا عن الخيال الزائف المتعمد الذى قصد به على حد قول هيكل نفسه هدم عبد الناصر والناصرية ، ذلك الخيال الذى يفسر ما جرى فى مصر منذ قيام ثورة يوليو وحتى رحيل عبد الناصر برده إلى حبر عظيم تعلو قامته على قامة الزعيم ، ولكن الأول كان يسيطر على هذه القامة !

وإذا كان الأستاذ صلاح منتصر قد حل بما كتبه ( فرضا ) لغز . ذلك الحبر الذى امتزج فى شخص ذى نواس « الرئيس » ولا يستطيع التاريخ أن يهمله ، فإنه قد أوقع نفسه فى مأزق تاريخى عنيف : حيث أصبح مطالبا بالإجابة على سؤال مهم وهو : من هو ذلك الحبر المجهول الذى امتزج فى شخص ذى نواس « الملك » ولم يذكره التاريخ ؟!

إن العلاقة الصحيحة بين الرئيس عبد الناصر وهيكل تبدأ عنـد « الصمود البطولى » للجيش المصرى فى موقع الفالوجا ١٩٤٨ ، والذى كتب عنه هيكل وقتها ، وتمر داخل الأنبوبة الشعرية المملوءة بمزيج من الأخذ والعطاء بين الزعيم والصحفى ، وتنتهى عند انكباب الرسميين وغير الرسميين من المصريين والأجانب على قراءة كل ما يكتبه هيكل ، لدراسته وتحليله بغية اكتشاف مضمونه الحقيقى والتعرف من خلاله على النوايا والطموحات الحقيقية لقائد أقوى دولة عربية ، لكننا هنا مجبرون على الاعتراف بأن العلاقة الوطيدة بين الزعيم والصحفى ليست كافيـة وحدها لتفسير الشهرة العالمية التى حظى بها هيكل فى عالم الصحافة !

ولكى يتحدد إطـار هذه العلاقة بصورة أوضح ، وينجلى الوضع الصحيح للزعيم فى مقابلة المحيطين به ومن بينهم هيكل ــ يمكننا متابعة وتحرى ما ذكره هيـكل نفسه حول هـذه العلاقة وحول شـخصية عبد الناصر ، ومن ذلك ما أشار إليه هيكل فى كتاب فؤاد مطر « بصراحة عن عبد الناصر » : « ... ذكرت لعبد الناصر مرات عديدة أننى أفضل الاحتفاظ بصفة الصديق الذى يتحدث إليك فى استمرار من دون وساوس ومن دون إحراج ، وأعتقد أننى مارست ذلك مع عبد الناصر .. وأعتقد أن ثقته الكاملة فى هى التى شجعت على استمرار علاقة الحوار المستمر بيننا من قبل الثورة وحتى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، وأحيانا كان يضيق بالجدل لكنه كان يسمع فى استمرار ، وعندما كان يشعر بالضيق ــ أحيانا ــ فلأن كلامى كان فى اعتقاده يسبب نوعا من الإحراج لأطراف اخرى ، وما دام هناك حوار دائم بين طرفين : طرف مسئوليته شاملة ، وطرف لا يملك إلا الفكر والكتابة ــ فمن الطبيعى أن تحدث توترات بينهما .. وأشهد أن جمال عبد الناصر كان نموذجا للرقة فى معالجته لحالات التوتر التى تحدث .. كنت فى مناقشاتى أمينا جدا ، لأننى صادق معه ومعجب به .. ليس إعجـاب الأعمى ، معجب به كرمز وكقضية وكحركة .. كثيرون يتصورون أن الأفكار التى كانت تتضمنها مقالاتى والأخبار والتحليلات التى كانت تنشر فى الأهرام ــ كنت أحصل عليها من عبد الناصر ، وهذا لم يحدث أبدا ، وكان كثيرون يتصورون أن التقارير التى تصـل إلى عبد الناصر أطلع عليها ، ومنها أنتقى الأفكار : لأضمنها مقالاتى .. إذا كان يحدث أن عبد الناصر يطرح فكرة أكون ضمنتها مقالة لى أو شعارا أطلقته فيها فهذا معناه أن عبد النـاصر اقتنع بضرورة طرح الفكرة أو إطلاق الشعار .. » . ومما سجله هيكل بخصوص علاقته مع عبد الناصر ما ألمح به فى مقـال كتبه تحت عنوان : عبد النـاصر ليس أسـطورة (٦/١١/١٩٧٠) : « ... إن جمال عبد الناصر ليس له خلفاء ولا صحابة يتصرفون باسمه أو يفسرون نيابة عنه .. إن خلفاء عبد الناصر وصحابته الحقيقيين هم كل الشعب وليسوا بعض الأفراد ، وهم كل قوى التطور

والتقدم وليسوا بعض المجموعات ، وهم كل المستعدين لأن يعطوا باسم عبد الناصر وليسوا كل الذين يمكن أن يأخذوا باسمه •• وأكاد أقول : إن تأثير عبد النـاصر فيمن لا يعرفهم شخصيا أعمق منـه فيمن عرفهم شخصيا : ذلك لأن الذين لم يعرفهم كان استيعابهم لفكره خالصا ، وأما الذين عرفهم فإن استيعابهم لفكره كان مشوبا فى بعض الأوقات وفى بعض الظروف بمطامحهم الذاتية ، وهذا مفهوم لأن الطبيعـة البشرية لهـا أحوالها ونزعاتها •• » •

ومن ذلك أيضا ما ذكره فى الندوة الدولية التى نظمتها اللجنة المصرية للتضامن الأفروأسيوى ( أكتوبر ١٩٨٦ ) حول تأميم القنـاة ــ حيث تحدث هيكل عن خطأين وقع فيهما عبد الناصر إبان أزمة السويس ، وذلك فى معرض حديثه عما أسماه بعنصر الاستعداد للاحتمـالات والخطوات المعاكسة المترتبة على تداعى الأزمة ، تحـدث قائلا : « •• لقـد وقع عبد الناصر فى خطأين : أولهما ــ أنه تصور أن العمل السياسى أسبوعا بعد أسبوع سوف يجهض فكرة التدخل المسلح ، فهو فى هذه النقطة لم يستطع أن يقيس قياسا دقيقـا الحـالة النفسية التى استبدت بإيدن ، وثانيهما ــ أنه تصور أن إيدن لن يقدم على تعاون أو تواطؤ مع إسرائيل ( الكيان الصهيونى ) فى حملة ضد مصر إذا قرر القيام بهـا ، لأن ذلك سوف يؤدى إلى إحراج أصدقاء بريطانيا العرب ، لأن ذلك يؤدى إلى نهاية النفوذ والمصالح البريطانية فى المنطقة •• » •

ويفهم مما سبق أن عبد الناصر كان مسئولا مسئولية شاملة ، وأن الذين عرفهم شخصيا كان استيعابهم لفكره مشـوبا فى بعض الأوقات والظروف بمطامحهم الذاتية ، وأن عبد الناصر كان صاحب فكر خاص استوعبته الجماهير بإيمان واقتناع خالص ، وأنه كان رمزا لتيار شعبى التف حوله على مدى مسيرته النضالية ، وأنه كان يعبر عن قضية جماعية لشعب أنهكته ممارسات الامبريالية المتحالفة مع الإقطاع ورأس المـال المستغل والصهيونية العالمية ، ويفهم منها أيضا أن عبد الناصر كان يقود

حركة فى وجه هؤلاء جميعا : حركة ينضوى تحت لوائها صحابته الحقيقيون الذين هم كل الشعب وكل قوى التطور والتقدم ليس فى مصر فحسب وإنما فى كل بلدان العالم الثالث على وجه العموم • كما يمكن أن يفهم منها المتحذلقون أن هذا الفكر وتلك القضية وهاتيك الحركة كانت جميعا تحت الملاحظة والتوجيه والتبصير المستمر ، وأن الأخطاء التى حدثت كانت نتيجة تقمص الزعيم لدور « الملك المختار » ، وبسبب تفانيه وإسرافه وتعصبه فى خدمة العقيدة ••!

إن ناظرا إلى الآثار التى تركها الحميريون لا يكاد يقرأ عليها غير قولهم : « فتحت ، وغلبت ، وحملت الغنيمة ، و •••• » ، بينما ناظر إلى آثار السبأيين سوف يواجه بكلمات أخرى من مثل : « بنيت ، ورممت ، وشيدت ، و •••• » ، والأخيرون هم الذين بنوا سد « مأرب » العظيم ، والذى لم يستأثر ببنائه ملك واحد من ملوكهم كما هى العادة فى تشييد الأبنية الكبيرة فى كل زمان • لكن مصر فى عهد عبد الناصر « بنت » السد العالى ، واستأثر ببنائه واحد فقط هو عبد الناصر ! ومصر فى عهد عبد الناصر حاربت ، وعمرت ، وشيدت ، وزرعت ، وصنعت ، و •••• ، ومصر فى عهد عبد الناصر لم تعرف ذا نواس « الملك » كما لم تعرف « الحبر » العظيم الذى كان يدير افكار فى رأس الملك •

يقول الأستاذ هيكل فى كتابه « ملفات السويس » : إن برنامج نهرو فى القاهرة حين عودته مصاحبا للرئيس عبد الناصر من مؤتمر بريونى فى يوليو ١٩٥٦ — كان يتضمن دعوة على الغداء فى السفارة الهندية ، وأنه ( أى هيكل ) كان من ضمن الحاضرين ، وفى أثناء الخروج من السفارة التفت الرئيس عبد الناصر تجاهه — وكانت أنباء سحب تمويل السد العالى هى المهيمنة على الجو السياسى وما صاحب ذلك من الإهانة المقصودة لمصر — وقال له : سوف يكون على كل واحد منكم أن يفكر فى الخطوة التالية ، ويتابع الأستاذ هيكل « •• قلت للرئيس عبد الناصر فى التليفون : إننى فكرت طوال الليل فى رد مناسب على الطريقة التى انسحبت بها

أمريكا من المساهمة فى تمويل مشروع السد العالى ، ثم استطردت فسألته إذا كان يذكر تعليقه على ما سمعه من وزير الخارجية البريطانية عندما التقى به فى شهر مارس ، وهو أن قناة السويس جزء من مجمع البترول فى الشرق الأوسط ، ثم سألته : تتذكر تعليقك عليه ، وأنا قلت : إن شركات البترول تدفع لأصحابه الأصليين حصة من عوائد تصل إلى ٥٠ ٪ من الدخل ، فى حين أن مصر وهى صاحبة القناة الأصلية لا تحصل على شىء تقريبا من دخلها .. ماذا لو .. وقاطعنى عبد الناصر قبل أن أكمل عبارتى قائلا : لا تزد حرفا وتعال لمقابلتى .. وعندما ذهبت لمقابلته كان واضحا لى أننى اقتربت إلى حد كبير مما كان يفكر فيه ، فقد كان تعليقه الذى بادرنى به هو قوله : لماذا خمسون فى المائة من دخل القناة ؟ ولماذا لا تكون مائة فى المائة ؟ وسألته عما يعنيه ( ! ) وكان رده أن ما يعنيه واضح وهو تأميم قناة السويس ، وذلك هو الرد الوحيد المناسب والممكن والذى يتيح لنا بناء السد العالى بدخل مواردنا المنهوبة ، ويقول هيكل فى موضع آخر : « ... وسألنى جمال عبد الناصر وإن كان فى الحقيقة قد بدا وكأنه يسأل نفسه : كيف يمكن إذن أن نكشف عملنا السياسى للفترة الأولى ، لتفويت فرصة التدخل العسكرى ضدنا ؟ كيف نستطيع أن نكسب وقتا تبرد فيه الأزمة ويتعود العالم على التأميم ؟ .. » .

ولقد طالع أصحاب الحس المسرحى المتفوق هذه الرواية بكل تأكيد ، واعتمادا على ما تضمنته من تفاصيل زادوا وشددوا الخبط على دفوفهم التى لا تفارق أيديهم أبدا ، محاولين صرف أسماع الجماهير عن معزوفة عبد الناصر الخالدة لتضرب هى أى ( الجماهير ) بدورها أخماسا فى أسداس وتحار فى الأمر ، ما دامت الأنغام تضيع تحت خبط الإيقاع المستمر ، وهكذا ولد هؤلاء لدى الجماهير فى مصر والعالم العربى أسئلة عجيبة ودقيقة ومدهشة إلى أقصى الحدود .

والمحير بعد كل ما سبق أن تبرؤ هيكل من كارثة اليمن وهزيمة يونيو لا يمكن أن يأخذه المرء مأخذا نظريا ، لأنه أقام عليه الدليل

العملى : فهو من ناحية سجل اعتراضه على دخول مصر صراعا عسكريا فى اليمن وعلى إغلاق خليج العقبة فى حينهما ، ومن الناحية الأخرى فإنه لم يدفع إلى دائرة أصدقائه بأية عناصر من القوات المسلحة ، يضاف إلى ذلك أنه لم يحدث مطلقا أن تحدث عن القوات المسلحة إلا بعد وفاة عبد الحكيم عامر ، وحتى هزيمة يونيو من جانبها العسكرى لم يتناولها إلا بعد أن توفى عامر ، لكنه يصرح بعد ذلك بأن عبد الحكيم عامر توقف عسكريا عند رتبة الصاغ ، ويبرر تمسك عبد الناصر به قائدا عاما للجيوش بأن عبد الناصر كان يحبه ، وأن عامر كان من كل زملاء عبد الناصر أحبهم إلى قلبه !

وها هنا يبرز ــ من بين « المجموعات » التى تتحرك على المسرح ــ لاعب ثانوى من لاعبى الرواية ، وقد ارتدى لباسا ينتمى إلى العصر الفرعونى رغم أن أحداث الرواية عصرية ! وتبدأ مع بروزه أنغام إفريقية صاخبة ، ثم تتجمع من حوله عدة راقصات من اللائى تنخلع لهن العقول ، وبعدها يسأل فى وقار بلغة فرنسية ركيكة : خبرونا إذن .. إذا كان هيكل هو الآلة المحركة أو الوقود لأفكار ذى نواس « الرئيس » فكيف لم يستطع أن يقنعه بوضع قائد كفء على رأس الجيوش ؟! تلك التى كان من المفترض أنها ستواجه الأحباش فى أية لحظة ، خاصة بعد أن حاصر ذو نواس أهل نجران وخدد لهم وأحرقهم فى النار ، وبهذا كانت الهزيمة فادحة ، أطاحت به وبديانته التى كان متعصبا لها أيما تعصب ، حتى أن المسيحية حققت بعد ذلك انتشارا واسعا ، وشيد الأحباش على أرض اليمن كنائس عديدة أشهرها التى بناها أبرهه فى صناعة والمعروفة بكنيسة « القليس » .

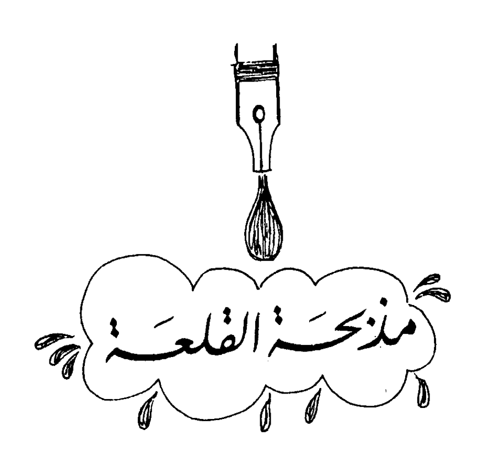
وفى أعقاب هذا المشهد المثير يقف الدكتور لويس عوض ــ وقد كان جالسا بين المتفرجين ــ ويتجه ناحية المزرح فى تأثر وتحفز ، ويتطوع بالإجابة على هذا السؤال ، من أجل إخراج المشاهدين من جو الحيرة الذى أشاعه المشهد بينهم ولكى يعود اللاعبون لاستكمال أداء النص

وإمتاع النظارة .. وقبل أن يبدأ فى الكلام ينبه الحاضرون إلى أن إجابته ستكون على طريقة إخلع القناع وتحدث .. يقول الدكتور لويس عوض فى كتابه « أقنعة الناصرية السبعة » أن هيكل هو مفكر الناصرية الأول فى مصر والعالم العربى ، ولذا فمن الأجدر له أن يراجع موقـ من بعض مقوماتها ، لأنها كانت فى حقيقتها يمينا مقنعا بقناع اليسار ، و ندما مضى صاحبها خلع اليمين القناع وخرج سافرا بغير حياء ( ومن مزايا خلع القناع ) أن يطرح هيكل على نفسه السؤال المنطقى فيما يتعلق بائتمان عبد الناصر الصاغ عبد الحكيم عامر على قيادة الجيوش وهو لا يستطيع أن يقود إلا كتيبة . ويستطرد الدكتور لويس عوض بعد أن يستعرض الكوارث التى حاقت بمصر نتيجة تمسك عبد الناصر بزميله المحبوب والمقرب إلى قلبه ، ودون أن تفوته المقارنة بين محمد على ومعه سليمان باشا الفرنساوى وعبد الناصر ومعه الصاغ عامر ، والذى كان كلما خسر حربا انتقل إلى رتبة أعلى ، وبعد أن يعاتب هيكل على تبريره الأجوف لبقاء عامر قابضا على قيادة الجيوش رغم هزائمه المتكررة ، باعتبار أن عبد الناصر كان أذكى من التوقف عنـد هذه الاعتبارات ، يستطرد بعـد كل ذلك قائلا : إن عبد الناصر فى حكمه المطلق كان يجد فى عامر نموذجا ممتازا للرجل الثانى وزميلا مثاليا وفيا يعرف ما يريد ويقنع به ، وأن عبد الحكيم عامر أراد لنفسه منذ البداية أن يكون الرجل الثانى فى الدولة ، وأنه أخذ ما يريد ولم يكن من أطماعه أن ينازع الرجل الأول مكان الصدارة : أولا ـ لأن الزعامة رهبانية وهو محب للحياة ، وثانيا ـ لأن نظام عبد الناصر كان بحاجة إلى حراسة الجيش سياسيا وعسكريا من الداخل ، حتى لا يتكرر مع عبد الناصر ما فعـله هو بفـاروق . ويختتم الدكتور لويس عوض إجابته بقوله : إن عامر أدى لعبد الناصر هذه المهمة فخدمه وخدم مصر ووقاها شر الانقلابات العسكرية .

وحينئذ تذهب شكوك المتفرجين وتنجلى حيرتهم ، ثم يعود الدكتور

لويس عوض إلى مكانه وسط دهشـــة الحضور ، ويبـــدأ اللاعبون فى استكمال مسرحيتهم الهروبية الهابطة •

لقد مضى الأحباش فى اليمن أربعا وسبعين عاما على قول الإخباريين العرب مل فيها الحميريون سلطة الأحباش ، وكان فى أمرائهم رجل من الأذواء ( طبقة الحكام الحميريين ) اسمه ســيف بن ذى يزن استنجده قومه فسعى فى إنقاذهم ، وأشاروا عليه أن يستنصر قيصر الروم فاستنصره فرده فمضى إلى كسرى فنصره ، ونجح فى قهر الأحباش وإخراجهم من اليمن وأصبح ملكا عليها ، لكنه لم يمكث على ذلك طويلا حتى غدر به رجال بطانته وقتلوه ، ولم يملك أحد بعده بل استقل أهل كل ناحية بما لديهم على مثال ملوك الطوائف حتى ظهر الإسلام فدخلت اليمن فى حوزة المسلمين •


مذبحة القلعة

فى الليلة السابقة لتشييع جنازة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر كانت السيارة الخاصة لشعراوى جمعه تمر من أمام معهد الشرطة ، كانت تحمل بالإضافة إليه كلا من أمين هويدى وسامى شرف وهيكل ، وفى أثناء ذلك سجل الأثير اقتراحا من شعراوى جمعه بأن ينسق ركاب العربة الواحدة سياساتهم معا باعتبارهم أكثر المسئولين قربا إلى عبد الناصر . وأغلب الظن أن هـذا الاقتراح أو ( الطلب ) لم يكن محلا للمراجعة الشخصية أو النقاش الذاتى من جانب اثنين منهم على الأكثر ، وقد كان يجمعهم جميعا إدراك متماثل لمقدار الأهمية التى يتمتع بها كل منهم فى النظام ، فحينما أصابت الرئيس عبد الناصر أزمة قلبية عنيفة ، واقتضى الأمر منعه من العمل تماما ــ شكل لجنة تحكم البلاد باسمه ، ولم يكن أعضاء هذه اللجنة سوى هؤلاء الأربعة الذين ضمتهم عربة واحدة ، ولكنها « ذات محركين » !

كان الإدراك متماثلا ، ولكن الدافع والهدف و « المحرك » لم يكن كذلك ــ بالنسبة لهيكل وحده على الأقل ــ وقد تبلور ذلك فيما بعد فى موقفه الصريح إلى جانب السادات فى صراعه مع مجموعة مايو ، والتى كانت أكثر اقترابا إلى أفكار الرئيس عبد الناصر ، وبدا واضحا للعيان أن هيكل كان فى فندق السادات يدافع عن نفسه أيضا ، رغم أن السادات كان ــ فى حد ذاته ــ مشكلة أمام هيكل : كان هيكل ينظر إليه من خلال عيون عبد الناصر ، ولأنه لم يكن ممكنا أبدا أن يتصور عبد الناصر نفسه وهو حى فى موضع أدنى من السادات ، كذلك كان هيكل مع السادات ، لكن عبد الناصر قد مات ، ولم يعد السادات يمثل له مشكلة ، بينما هيكل حى وعليه أن يواجه المشكلة .

هكذا وجد هيكل نفسه فى دوامة الحدث ، فمال إلى ميزانه الخاص ، وبدأ يزن الأمور على ضوء لا يقين « جزئى » بمن سينتصر فى الصراع ، وثقة « محدودة » فى إمكانات كل من الطرفين على التعبير عن

أفكاره ، لـكنه كان « متـأكدا » أن الصراع لابد وأن ينشب ، وكان « المحرك » الذى يدير أفكاره تلك من ذلك النوع الذى يعمل صبف ( لميكانيزمات ) أمنه وحريته وقدرته على التعبير .

كان أعضاء مجموعة مايو يرغبون فى أن يكون هيكل مرتبطا بهم ، وفى المقابل لم يحرصوا هم على محاولة جذبه إلى صفوفهم ، أما هيكل فلم يكن فى جميع الحالات على استعداد للتعاون مع هؤلاء الذين قدموه إلى ما يشبه المحاكمة قبل شهور قليلة . ومن الناحية الأخرى فإن السادات كان يعزف بمهارة على هذا التناقض القائم بين هيكل وقيادات الاتحاد الاشتراكى ، فزاد الهوة بينهما عمقا ، بيد أنه ــ من ناحيته ــ لم يكن ليقبل بحال من الأحوال أن يؤدى هيكل الدور نفسه الذى كان يؤديه فيما مضى ، وإن كان حريصا على الاستعانة بكفاءته ، وبذلك حاول أن يجعله يعمل معه بشروطه هو لا بشروط هيكل .

والحقيقة أن جذور وخبايا هذه المواقف والعلاقات الغريبة والمعقدة ــ تستحق التوقف عندها طويلا ، من أجل استجلاء الغموض الذى أحاط بمجريات المباراة السياسية التى دارت بين السادات وهيكل خلال عقـد السبعينات ، لكن هذا التوقف لن يثمر فائدته المرجوة ما لم نتـابع أولا فصول المذبحة .

يعتقد هيكل أنه حينما شارك كوزير للإرشاد القومى وكعضو فى مجلس الأمن القومى وكرئيس لتحرير الأهرام ــ فى المشاورات والمداولات السياسية التى أدت إلى « ولاية » الرئيس السادات على مصر ، يعتقد أن مشاركته تلك كانت فعالة ومؤثرة فى الوصول إلى هذه النتيجة . لكنه ــ من ناحية أخرى ــ يؤكد أنه لم يكن غافلا عن بعض أسباب القصور فيه ، وأنه تصور ( أى هيكل ) أن أعباء المنصب ووقار المسئولية سوف تقوى كل العناصر الإيجابية فى شخصيته ( أى السادات ) وسوف تساعده فى التغلب على جوانب الضعف فيها .

وننوه هنا إلى أن المرحلة التى تم فيها اختيار السادات رئيسا للجمهورية تعد من أخطر وأدق المراحل التى مرت بها مصر خلال تاريخها الحديث : كان يطحنها صراع « المماليك » خلف كواليس السلطة ، وتمزقها القلاقل والاضطرابات الداخلية ، وتعتصرها أزمة اقتصادية طاحنة ، ويطبق على جزء من أراضيها استعمار استيطانى مأفون (*).

كما تنبه إلى أن واحد من أهم وجوه الاختلاف فى المطابقة التاريخية التى نحن بصددها ــ يتمثل فى أن هيكل كان على يقين تام بأنه سيختلف يوما مع الجناح الذى مال إليه ميزانه الخاص، إلا أنه ــ ولأبسط الأسباب ــ سوف يؤدى بانتصاره على الجناح الآخر إلى القضاء التدريجى على كل المقومات الرئيسية للناصرية .

وعموما فإن الفصل الأول من فصول المذبحة فيه مزيج ضخم من السحر والشاعرية وليس فيه سوى إشارة ضمنية للعنف والدموية . ووقائع هذا الفصل تدور فى منزل الرئيس السادات ، وتحديدا فى شرفة تجمع بين غرفة نومه وغرفة نوم زوجته ، حيث يجلس الرئيس السادات مضجعا ، وقد تجمعت من حوله عرائس الإلهام الساحرة .. فى هذا الفصل كان الحوار مقتصرا على عبارة واحدة قالها الرئيس لهيكل ، والكلمات تخرج من فيه متقطعة وكأنها تملى عليه املاء ، أو كأنه الوحى : « انت عارف أتاتورك (*) عمل إيه ..؟ أنا حاعمل أكتر منه .. حاشيلهم كلهم .. » .

---

(*) (أفن) الرجل ــ أفنا : نقص عقله ، فهو مأفون ، وأفنى (وتأفن) : تخلق بما ليس فيه وتدهى .

(*) كمال أتاتورك (١٨٨٠ ــ ١٩٣٨) هو مؤسس تركيا الحديثة ، اسمه مصطفى كمال ، وقد اتخذ فى ١٩٣٤ لقب أتاتورك ومعناه «أبو الأتراك» ، ولد فى « سالونيك » والتحق بالكلية الحربية ، واشترك ضابطا فى الثورة التى قادها حزب « تركيا الفتاة » فى ١٩٠٨ ، نظم فى ١٩١٩ الحزب « الوطنى التركى » ، كون جيشا لمحاربة الجيش اليونانى الذى كان قد احتل « ازمير » =

لم يكن هذا الفصل يحمل تاريخا محددا ، وإن كان تقـديره من السهولة بمكان • أما الفصل التالى فقد أداه هيكل منفردا وهو فى خارج الخشبة Off Stag ، وفيه قام — على حد تعبيره — بهندسـة حركة ١٥ مايو •

ولقد كان طبيعيا أن يقبل جميع المماليك الدعوة ( وإن كانت غير رسمية لغالبيتهم ) لحضور « الاحتفال » بالتصديق على ميثاق أو اتفاق قيام دولة الاتحاد الثلاثى ، وهو « الاحتفال » الذى بدأت مراسيمه فى اجتماع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى (**) وانتهت فى اللجنة المركزية • كما كان طبيعيا أيضا ألا يوجه « صاحب العمارة » الدعوة إلى « مهندس البناء » ، لأن كلاهما يعلم تماما أن العمارة سوف تنهار على من فيها !

رفض الجناح الناصرى التنفيذى من السلطة قبول اتفاق الوحدة ، فبدأ أمام الجماهير وكأنه ينقلب على أهم طموحات الناصرية والوحـدة العربية ، وبذلك اجتاز « المماليك » طريق « باب العزب » الكثير التعاريج والعميق الغور ، بعد أن أغلق الحراس وراءهم باب القلعة الضخم ، وفى المقابل واصل الجناح الساداتى مسيرته على طريق « عبد الناصر » وقد كان طريقا آمنا إلى حد بعيد !

---

خرج عن طاعة السلطان ، وعقد فى ١٩٢٣ معاهدة « لوزان » مع الحلفاء ، واقام جمهورية تركيا ، وانتخب رئيسا لها ، وظل محتفظا بالرياسة طوال حياته ، فصل بين الدين والدولة ، واستبدل بالحروف العربية الحروف الأوربيـة .

(**) ورد فى بيان الرئيس السادات إلى الأمة يوم ١٤ مايو ١٩٧١ ان هذا الاجتماع ضم كلا من : على صبرى ، عبد المحسن ابو النور ، ضياء داود ، شعراوى جمعه ، لبيب شقير ، انور السادات ، حسين الشافعى والدكتور فوزى فقط الذين وافقوا على مشروع الميثاق .

ولا يمكن أن تتصور أن القصة قد انتهت عند هذا الحد ، فما سجله التاريخ حول مذبحة القلعة ما زال له بقية ، وما توقعه هيكل نفسه من نتائج تترتب على مشاركته فى هذه المذبحة قد حدث بالفعل ( وإن فاقت التصور — ربما نتيجة إطراد نمو الجوانب الإيجابية فى شخصية السادات ! ) كما تحققت ( بعد عشر سنوات تقريبا ) نبوءة واحد من مراكز القوى ، أنهاها إلى هيكل عبر باب « القلعة » الضخم ، متمثلا فيها قول الشاعر :

وقل للشامتين بنا أفيقوا  سيلقى الشامتون كما لقينا !

وما سجله التاريخ أن « الوالى » لم يذبح من عارضوه فحسب ، بل انتهى من ذلك أولا ثم ( اندار ) على من ساندوه وأيدوه ورضوا به ! وجزء من ذلك توقعه هيكل وإن تجسد فى صورة لم تخطر له على بال ، لكنه طابق أحمالا النبوءة السابقة .

إن انقضاض « الوالى » على الرجل الذى ساعده فى الارتفاء إلى منصب الولاية كان سريعا وخاطفا ، وكان ذلك عند أول بادرة للمعارضة ، وقد قبل الأخير الهزيمة بمنتهى « النبل » وبغاية « الشرف » وقد كان نقيبا « للأشراف » ! بيد أن الصراع الذى دار بين السادات وهيكل استمر لسنوات طويلة ، ولم يتوقف حتى بعد رحيل السادات ، ولم يهتد أحد إلى نتيجته النهائية إلى يومنا هذا !

---

(*) أرسل السادات ابنته نهى فى هذا اليوم لتحضر معها « عمرو » حسنين فقطع هيكل المسافة بين منزله ومنزل الرئيس سيرا على الاقدام ، وبعد اغتيال السادات قطع نفس المسافة على قدميه ، ليقدم العزاء فى وفاة صديقه الذى طلب منه الوقوف إلى جانبه فى احداث مايو ٧١ ، رغم كل ما عاناه هيكل من آثار نفسية وشخصية فى تعامل السادات معه ، ويومها لم تتمالك جيهان السادات نفسها من وقع الزيارة ، وقالت له : لى عندك طلب يا محمد ... انت لن تهاجم السادات ... ووعد هيكل بالا يهاجم السادات ، على أن يحتفظ بحقه فى تحديد وتوضيح نقط الخلاف بينهما طيلة سنوات حكمه . ولقد كانت الخلافات عميقة إلى ابعد الحدود ، وكان توضيح كل نقطة منها بمثابة اغتيال جديد للسادات .

والمحلل لتجسدات الصراع بين الرئيس السادات وهيكل لاشك واقع فى دائرة الارتباك لأنه سيكون مطالبا بالإجابة على عشرات الأسئلة التى تتسم بالتناقض واللامعقول : فلم ــ بداية ــ « لعب » السادات مع هيكل بمفرده ، بينما « لاعب » مجموعة مايو مجتمعة ، وهزمها فى عدد محدود من « النقلات » ثم لمــاذا مكن السادات هيكل من مجاراته فى « اللعبة » طوال هذه الفترة ، وقد كان مستحوذا من الناحية العملية على « قلب الرقعة » ؟! ولم سهل هيكل للسادات إحكام سيطرته على « مربع الملك » ؟ ولم أيضا قبل هيكل من ناحيته أن « يلاعب » السادات منفردا ؟ ولمــاذا ساعده فى القضاء على « الأفيال » التى كان من الممكن أن تغير من مسار « اللعب » ، لو حرص على الاحتفاظ بها ؟ ولمــاذا لم ينسحب هيكل من « المباراة » بعد أن فقد وأفقد نفسه الكثير من « القطع » إما « موتا أو تسميرا » ؟ وهل كان السادات يرغب فى « إماتة الملك » بعد أن يفقد هيكل آخر بيدق يملكه ؟! وهل كان دافع هيكل إلى الاستمرار فى اللعبة أمل كان يراوده فى أن ينجح فى « ترقية بيدق » ، أو فى إجبــار السادات على إماتة الملك مخنوقا ؟... لمــاذا أضاع هيــكل « الوزير » برغبته بعد أن وضعه بيده فى « خانة » الموت ؟! ولمــاذا منعه السادات من « تسجيل النقلات » كما يفعل « المحترفون » ؟ ولمــاذا لم « يضغط » هيكل على « جناح الملك » رغم ثقته وعلمه الكاملين باختلال « تنظيمه » ؟ ولمــاذا رفض السادات السيجار « الهافانى » الذى قدمه له هيكل ورحى المباراة دائرة ؟ ولمــاذا أخيرا « قذف » السادات « بطاولة اللعب » ليس فى وجه هيكل فحسب ، بل وفى وجه المتفرجين أيضا ؟!!

والآن لندع مؤقتا مسألة الخروج من دائرة الارتباك التى أوقعنا أنفسنا فيها ، ولنشرع فى متابعة الفصل الأخير من فصول المذبحة .

يقول هيكل فيما يشبه المفاجأة الفردية : « ... الموقف الذى اتخذته فى شهور نوفمبر وديسمبر ١٩٧٣ ويناير وفبراير ١٩٧٤ حين وجدت كل

قناعاتى تحتم على أن أقف موقف المعارضة الصريحة والعلنية لمجمل سياسات الرئيس الراحل السادات ، وتوجهاته فى الداخل والخارج ، لم يكن يتبلور هذا الموقف فى معارضة هذه السياسات وحسب ، وإنما فى مواصلة هذه المعارضة حتى لو أدى الأمر إلى خروجى من الأهرام فى فبراير ١٩٧٤ ، ودخولى السجن فى سبتمبر ١٩٨١ » ويوضح هيكل مستطردا « ... هناك أشياء لا تحتاج إلى قرارات : ففى حياة كل واحد منا لحظات أهم من لحظات القرار ، وهى لحظات المواقف ، تلك ليس فيها حتى مجال للاختيار ، لأن الاختيار يكون سابقا عليها وليس لاحقا لها .. حينما نختار لاحقا فإننا فى الواقع لا نختار ، بل نستسلم ونتلاعب بالألفاظ والحقائق ، كى نعطى طبيعة ما نفعله .. إن هذه الفترة كانت حاسمة فى حياتى ، وكان على فيها أن أتخذ موقفا وليس قرارا .. كان أمامى أن أظل قريبا من قمة السلطة والقوة فى مصر ، وأن أضحى بكل ما أنا مقتنع به ، كما كان أمامى أن أتمسك بقناعاتى ، وأفقد الباقى كله فى المقابل .. وقد تمسكت بقناعاتى ، ولم أفقد شيئا له قيمة ، فالامتحان الذى تعرضت له — فى ظنى — فرض على أن أحاول على اتساع العالم كله ، ولم يضق وطنى أبدا بحياتى فيه ... » .

لقد احتل السادات فى فترة متأخرة من حياته جبهة المسرح Forestage وظل بذلك حاضرا أمام الجماهير ، حتى فى الأوقات التى كانت تسدل فيها الستارة ، ولذا كان مضطرا إلى أداء بعض المشاهد الخارجة عن النص المطبوع أمام الجمهور المترقب دائما ، ولقد كان أحد هذه المشاهد ما حدث فى سبتمبر ١٩٨١ ، وهو ما وصفته الجوقة وقتئذ عن طريق التعليق والتحاور مع الممثلين بأنه ثورة .. ثورة كان هدفها الأول والأخير هو تطهير الخشبة من جميع اللاعبين ، ليبقى عليها السادات وحده والجوقة من خلفه ، وصار الأمر وكأنه عودة إلى دراما الممثل الواحد (Monodrama) الذى تساعده جوقة ناطقة ، والتى عرفت لأول مرة فى « ألمانيا » قبل ما يزيد على مائتى عام .

كان هيكل من بين من شملتهم قوائم القبض ، وكان ذلك فى شهر سبتمبر عام ١٩٨١ ، كان قد أتم فى هـذا الشهر من ذلك العـام ثمانية وخمسين عاما ، كان فى خريف عمره ، وكان هذا الخريف بمثابة المشهد الأخير من آخر فصول المذبحة ، وكان بحق هو « خريف الغضب » .

والمؤسف أن السادات لم يتمكن من تلقى تحيـات الجمهور عقب انتهاء المسرحية ، وكان الأجدر بها ، لكن الجوقة وجدت متنفسا فى النهاية ، فخرجت لتتلقى التهنئات وهى تتباكى على ممثلها « الأوحد » وكان هذا فى العام ١٩٨٣ ، وفى شهر أبريل من ذلك العام تحديدا حيث خصص المجلس الأعلى للصحافة ــ ولأول مرة ــ جلسة لمناقشة حدود حرية الرأى ! والمنهج الصحيح لمناقشة التاريخ بعيدا عن الأهواء الشخصية ! كان ذلك بمناسبة ما نشرته بعض الصحف العربية من كتاب « خريف الغضب » للأسـتاذ محمد حسنين هيـكل ، والذى تناول فيه حيـاة الرئيس الراحل أنور السادات . أجمعت الآراء على أن حرية الرأى لا تعنى حرية السب أو القذف أو الإهانة ، وأكد الأعضاء أن ما كتبه هيكل ليس تاريخا بل هو رأى شخصى ، وأن التاريخ لا يكتب بهذه الطريقة ، وأن هيكل أدان نفسه قبل غيره ، لأنه كان شريكا فيما علم به ، ولم يفصح عنه إلا بعد أن دخل السجن . وقال الأعضاء إن الطعن حينمـا يتحول إلى شـخص رئيس الجمهورية فهو طعن فى مصر نفسها ، وذكروا أن زعماء العالم المتحضر أحسوا بالفجيعة عندما استشهد السادات ، كما أخبروا أن الصحفيين الغربيين يسـتنكرون ما نشرته الصحف العربيـة للأستاذ هيـكل ، وأن المتخصصين فى التاريخ لم يقروا هذا الكلام .

والطريف بعد كل ما تقدم أن كتاب « خريف الغضب » كان مصادرا وممنوعا من التداول فى مصر وقتئذ ، والأطرف أنه صدر حكم إدارى فيما بعد بتداول الكتاب فى مصر ، وكان ذلك بقرار محكمة القضاء الإدارى الصادر فى ١٩٨٥/٢/٢٦ ونصه كالتالى :

« قررت محكمة القضاء الإدارى بمجلس الدولة عدم قبول الدعوى من نشر حلقات كتاب خريف الغضب للأستاذ محمد حسنين هيكل ، وقرار وزير الإعلام بمنع دخول الكتاب والصحف الأجنبية والعربية التى تنشره فى مصر وتداولها » .

( وقد نشر القرار فى جريدة الأهرام فى ١٩٨٥/٢/٢٧ ) .

أصبح هيكل فى مرحلة السادات مضطهدا بعد ما كان الرجل القوى فى مرحلة عبد الناصر ، فقد تعرض خلال حكم السادات لصنوف متعددة من الاضطهاد ، من بينها توجيه تهمة التهرب من الضرائب إليه فى يناير ١٩٧٨ ، وقد حقق معه المدعى العام الاشتراكى فى هذا الشأن ، وفى مايو من العام ذاته أحيل إلى المدعى ذاته بتهمة إرسال أخبار ومقالات إلى خارج البلاد تشهر بمصر وتهدد سلامة الجبهة الداخلية ، وباتت مغادرته البلاد مرهونة بالحصول على إذن مسبق لحين انتهاء التحقيق ، ولم يرفع الحظر عن سفره إلى الخارج إلا فى نوفمبر ١٩٧٨ ، وفى سبتمبر ١٩٨١ صدر قرار بالتحفظ عليه ، وأودع السجن .

بعد سنوات طويلة فى موقع القمة وجد هيكل نفسه مودعا فى السجن ، وبعد أن مورست ضده مختلف أشكال الاضطهاد الممكنة ، وجرد من مسئولياته السياسية ، ودفع إلى ترك الأهرام تحت تأثير صدمة كهربائية من صدمات السادات . لكنه تألم فى سجنه وبكى حينما علم باغتيال غريمه الذى كان أقرب إليه من أى شخص آخر طوال السنوات الأربع الأولى من رياسته. ويلخص هيكل شعوره من جراء ذلك كله بقوله . « كنت اعيش فى وطن رئيسه يملك كل شىء ويعاديك ، ويعتبرك هدفا مباشرا لابد من ضربه .. هذا شعور غير مريح ، خاصة لمن لا يريد ترك البلاد تحت أية ظروف .. تبقى فى الوطن وأنت مستهدف ! أين المفر ؟! .. »

وبعد ، فقد وجب أن نبدأ عند هذا الحد فى استجلاء الخبايا التى كانت تحكم شبكة العلاقات المعقدة ذات الأطراف الثلاثة : السادات ،

هيكل ، مجموعة مايو ــ آملين أن يمكن الكشف عن جذورها من تحريك الفكر من دائرة الارتباك إلى ساحة الاشتباك ، لأننا سنختلف حتما فيما يتعلق بالنتائج .

وإننا إذ نتجاوز ــ فيما يلى ــ البحث فى جذور الصراع المتبادل بين السادات ومجموعة مايو باعتباره يتمثل فى علاقتين من العلاقات الست المتمثلة فى داخل هذه الشبكة الثلاثية ــ فإننا نعنى بذلك أن هاتين العلاقتين شبه مغلقتين ولا مجال فيهما للحركة ، ونعنى أيضا أن الطرف الثالث من أطراف العلاقة ، وبعلاقتيه المتبادلتين مع الطرفين الآخرين ، هو الطرف الأكثر مرونة ، وهو من ثم الطرف الأكثر تأثيرا فى صياغة وتشكيل ما يعترى هذه الشبكة من العلاقات ــ من مظاهر ، وما يتمخض عنها من مواقف .

ويبدو أن هذا التصور يعبر بدرجة مرتفعة من الثقة عن واقع الأمر ، ذلك أن العلاقة التى كانت سائدة بين السادات ومجموعة مايو كانت متضادة وعدائية على طول الخط ، بحيث أنها تبلورت فى النهاية فى الصدام العلنى المشهود فى مايو ١٩٧١ ، والذى انتهى بانفراد السادات بالسلطة ، كما أن السادات ومجموعة مايو حاولا ــ كل من جانبه ــ أن يخطب ود هيكل ويستميله إلى جانبه ( وإن حاولت الأخيرة فى وقت متأخر وبعد مواقف لا يمكن التغاضى عنها ) مع علم ويقين الأطراف الثلاثة بالعداء والتنافر المتبادل القائمين فيما بينهم جميعا .

وجملة القول فى العلاقة التى كانت تربط بين هيكل ومجموعة مايو أو ما أطلق عليها فيما بعد « مراكز القوى » (*) .

---

(*) لفظ حديث وضعه وابتكره هيكل فى معرض تناوله لمحاولة الانقلاب التى قام بها المشير عبد الحكيم عامر واعوانه بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، ولقد مات هذا التعبير بعد شهور قليلة من ولادته ، لكنه عاد إلى الوجود بعد احداث مايو ١٩٧١ ، ليطلق على مجموعة مايو ، وشاع بعدها مع كثرة استخدامه .

أنها كانت متوترة للغاية ، وتتضمن اختلافا كبيرا فى وجهات النظر ( وإن كان ذلك لا ينفى وجود قدر من المرونة وإمكانية الحوار والأخذ والرد والمهادنة ــ فيما بينهما ) ، وليس أدل على ذلك من أن مقــالات هيكل الأسبوعية كانت موضع نقاش دائم من قيادات الاتحاد الاشتراكى ، وموضوعا دائما فى جدول أعمال لجان التنظيم السياسى ، والتى كانت ترفع آراءها إلى الرئيس عبد الناصر ، ومن ذلك أيضا اعتراض هيكل على فكرة إنشاء المجلس الأعلى للصحافة التى اقترحها على صبرى ، حتى لا يذوب الأهرام فى تنظيم يضم صحفا أخرى تابعة للجهاز السياسى ، يضاف إلى ذلك أن هيكل كان سببا مباشرا وراء إقرار اللجنــة الدائمة للاتحاد الاشتراكى قبول استقالة على صبرى فى ٤ فبراير ١٩٧٠ ( كان ذلك فى أول اجتماع تعقده اللجنة برياسة الرئيس الســادات ) وكانت الأهرام قد نشرت فى ٢١ سبتمبر ١٩٦٩ أن وكالات الأنباء الغربية تروج أن على صبرى كان يعد لانقلاب فى مصر وأن الاتحــاد السوفيتى كان ضالعا فيه ، كما نشرت أن على صبرى كان يحمل أمتعة كثيرة فى طريق عودته من موسكو خلال شهر يوليو ١٩٦٩ ، وأن هذه الأمتعة خرجت فى أحد اللوريات التابعة للاتحاد الاشتراكى ولم تدفع عنها جمارك .

وخلال الفترة التى عين فيهــا هيكل وزيرا للارشاد القومى (**) كانت أجهزة الأمن قد سجلت حديثــا دار فى منزل لطفى الخولى رئيس تحرير « الطليعة » ، تبادل فيه مع السيدة نوال المحلاوى سكرتيرة هيكل الشخصية ومع عدد من الأصدقاء ــ موضوع تعيين هيكل وزيرا للارشاد القومى ، وكان الحديث ينتقد هذا الإجراء ، ويشوبه بعض السباب ، وقد

---

(**) عين هيكل وزيرا للارشاد القومى فى ٢٦ ابريل ١٩٧٠ ، وسمع نبأ تعيينه من الإذاعة وقد بذل مساعى ضخمة وقتها ليحتفظ بمنصبه فى الاهرام إلى جانب الوزارة واجيب إلى طلبه ، لكنه عاد وطلب إعفاءه بعــد اقل من مائة وثمانين يوما ، واجابه السادات إلى ذلك ، فاعفى من منصبه كوزير فى ١٨ أكتوبر ١٩٧٠

أصدر الرئيس عبد الناصر أوامره بناء على ذلك باعتقال لطفى الخولى ونوال المحلاوى وآخرين ، واستمر الاعتقال لعدة أشهر ، ولقد كان هذا الإجراء بمثابة صدمة عنيفة لهيكل ، وإضعاف لمركزه • فهل كان ممكنا لهيكل أن يستكين إلى علاقة ودية مع هؤلاء ، أو يستكينوا هم إلى علاقة مماثلة معه ؟ وهل كان ممكنا كذلك أن يكون هناك اتفاق بين على صبرى وهيكل ، وقد كان الخلاف فيما بينهما حديث المجالس والموائد ؟•

ونأتى الآن إلى العلاقة المتبادلة بين الرئيس السادات وهيكل ، والتى عرضنا لبعض زواياها ومظاهرها فيما سبق ــ وبقدر ما تفسح به حدود الكتابة ــ والتى اعترفنا بداية أنها من جملة علاقات كفيلة بإيقاع الناظر إليها فى دائرة الارتباك ، حتى مع علمه بما بينهما من خلاف ، وبناء على ذلك فإن الآراء التى سجلها كل منهما حول الآخر ، والتى أوضحنا شيئا منها قبلا ــ ربما تكون العامل الأكثر تأثيرا فى تفسير طبيعة هذه العلاقة •

وترتيبا على ذلك نعود هنا لنضيف أن الرئيس السادات كان ناقما على هيكل بصفة عامة ، رافضا لمستوى علاقته مع عبد الناصر ، وقد ترجم الرئيس السادات ذلك ترجمة علنية منتقدا إياه دائما بأنه تعود أن يكون شريكا فى الحكم أيام عبد الناصر : يشكل الوزارات ويصنع القرارات و •••• فى حين أنه ــ أى السادات ــ لا يقبل ذلك ، وذكر الرئيس السادات فى حديث لمجلة « الحوادث » اللبنانية نشر فى جريدة « الأخبار » القاهرية فى ١٩٧٥/٥/١٥

إنه لن يقفل الصحافة على هيكل كما فعل عبد الناصر ، ويشهد الأستاذ أحمد بهاء الدين أنه شخصيا سمع السادات ــ عندما قرر إخراج هيكل من الأهرام ــ يقول : « إن هيكل لم يكن رئيس تحرير جريدة ، ولكنه جعل من الأهرام حزبا واخطبوطا له أجهزته ، وصار كل واحد فى الأهرام يظن أنه هيكل صغير يشارك فى حكم البلاد » ، ولهذا قرر

السادات أن يخرجه من الأهرام ، وأن يكون الخروج بصدمة كهربائيه •• « ووجدت أن الصدمة الكهربائية التى تجعلهم يفيقون هى أن أرسل لهم على أمين بالذات : عدو هيكل اللدود » •

لكن السادات كان يشعر أن الأهرام ما زال وسيظل « هيكليا » مهما حدث ، كما كان يعتقد أن هيكل جعل من الأهرام مؤسسة خطيرة ذات أجهزة غريبة ، ويرى أن هذه الأجهزة شيطانية ، أنشأ هيكل بواسطتها حزبا سريا يستطيع أن يقوم بأدوار خطيرة ، فمثلا رأيه فى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية أنه « هو اللى بيغذى هيكل بمادة مقالاته ، ويغذى عبد الناصر بالمعلومات اللى تناسب هيكل » ، ورأيه فى سكرتارية التحرير المركزية « دول أخبث ناس فى الأهرام ، هيكل منقيهم واحد واحد ، لسه هيكل بيلعب بيهم ، وبيدسوا حاجات فى الجرنال » •

وقد أعلن السادات مرارا أن هيكل حاول التأثير عليه شخصيا من خارج البلاد بكتابة الكتب « لشتيمة » مصر ، وقال إنه « بيشوش » على النظام ، وأنه ( أى السادات ) « موش من أنصار إن كاتب واحد يحتكر •• زى ما كان هيكل فى وقت عبد الناصر » ، وأنه قال له : « مقالتك تفوت على الرقيب » ، وانه « كان يدعى صداقات مع الملوك والرؤساء » وأنه كون الملايين ، وتقاضى من المؤتمر الإسلامى فى الطائف ، وكان يسافر ثلاثة أرباع السنة ، وأنه ملحد لا يؤمن بأديان ، كان يصعد فى رمضان إلى مطعم الأهرام ليتناول الغداء ، ويجمع الناس ويهزأ بالأديان ، وأنه ظاهرة لن أتسامح فيها ، لقد مهد للوفد وللجماعات الإسلامية ! وتقاضى الملايين من الكتابة ضد مصر فى صحف أمريكا وبريطانيا وفى الدول العربية » ( وكفى ذلك ) •

وعلى الجانب الآخر فإن هيكل يرى أن السادات « طعن العرب بالمبادرة » ، وأنه « يضرب خصومه السياسيين » ، وأن عبد الناصر رفض أربع مرات ما قبل به السادات •• ويؤكد هيكل أن السادات كان عميلا

فى المخابرات العسكرية الألمانية ، ثم فى الحرس الحديدى الذى كونه فاروق ، ثم شريكا فى اغتيال أمين عثمان ومحاولات اغتيال مصطفى النحاس ، وذهب إلى الحسين ليقبل يد الملك ، وكان يرتشى ، وأنه كان يعانى من بعض أسباب القصور والضعف . والأهم من كل ذلك أن السادات كان يدرك ملامح التغيير فى تعامل هيكل مع شخص رئيس الجمهورية :

فأين حديثه بالصوت العالى وبشكل شبه منتظم عن علاقته بالسادات ، أين ذلك من تحاشيه مجرد الإشارة أمام قرائه إلى علاقته بعبد الناصر ! كما كان هيكل حريصا على مناطحة هنرى كيسنجر رأسا برأس فى الوقت الذى لمع فيه نجم السادات عالميا مقترنا مع نجم السياسة الأمريكية .

ولأن السادات أطاح بطاولة اللعب فى وجه الجميع فى نهاية الأمر ، فإننا لم نعرف على وجه التحديد من منهما كسب المباراة ، السادات أم هيكل ؟

وهنا سنختلف بالضرورة ، كما أننا لا نزال مطالبين بوضع إجابات محددة على مناحى الغموض والتناقض التى اعترت مجريات اللعب وأحاطت به ، خلال مباراة دارت بينهما على مدى عشرة أعوام ، وربما يزيد . وقد ذكرنا قبل ذلك أن هذه الإجابات تعد هى المخرج الوحيد من دائرة الارتباك إلى ساحة الاشتباك ، بمعنى أننا سنختلف هنا أيضا بالضرورة .

---

(*) فى حديث لأحمد زين بالسياسة الكويتية ١٩٨١/٣/١ تحت عنوان حوار مع الرجل الذى خرج من دائرة المسئولية السياسية المباشرة ولم تضق عليه دائرة الرؤية الاستراتيجية .

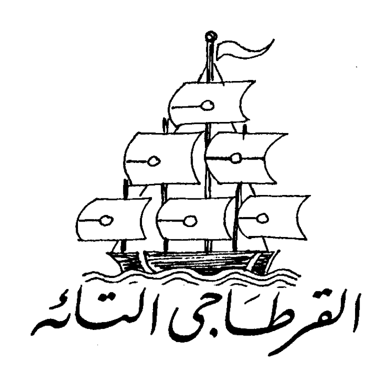
إن الهجوم لم يرد بخلدى لحظة واحدة والصحفى عندما يكتب بقلمه يتحول القلم إذا كان صادقا وامينا احيانا إلى شبه سكين . =

ولعل القطوف التى أوردناها حول جذور وخبايا الصراع الثـلاثى بين السادات وهيكل ومجموعة مايو ، لعلها تعين القـارىء على تحرى الغموض الذى اكتنف هـذا الصراع ، فيتمكن من وضع إجابات لمـا طرحناه من أسئلة . وهى بحق فرصة طيبة لإعمال الذهن وتدريبه ، ربما تفيد فى تقصى زوايا وخبايا صراعات أخرى مقبلة !!

---

لو كان الهجوم هدفى فعندى آلاف الخطابات الشخصية لكنى ابدا لن اورّيها او احكيها انا فقط شاهد على تاريخ بعض الاحداث .

لكنى لا أهاجم احد وانا كبير قوى على الحاجات دى .


القرطاجي التائه



لم يكن الفايكنج ( سكان اسكندنافيا وجزر شمال الاطلسى الأصليون ) هم السابقون إلى الوصول إلى أمريكا ! فقد أعلن نفر من العلماء مؤخرا أن الفينيقيين سبقوهم إلى العالم الجديد بحو ألف وستمائة سنة ! وبذلك فإن كريستوفر كولومبس لم يفعل سوى أنه أعاد اكتشاف أمريكا وحسب !

ولقد أخطأ كولومبس خطأ جسيما عندما ترك لـ « أراشيف التاريخ » عشرات الأدلة والوثائق ، التى جعلته يقسم باسم أكثر آلهة البحر شرفا وتقديسا بأنه هو الذى اكتشف أمريكا ، رغم أنه حرم حتى من مجرد إطلاق اسمه على ذلك العالم الجديد ، إذ انتزع منه هذا الشرف الرفيع الملاح الإيطالى أميريجو فيسبوتشى !

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لكولومبس فإنه على النقيض بالنسبة الفينيقيين ، فهم لم يتركوا سوى وثيقة واحدة عثر عليها البروفسور هـ . جوردون عام ١٩٦٦ على وجه التقريب ، ولم تكن هذه الوثيقة سوى صورة أمينة وموثوقة لنقوش حجر « باراهيبا » الشهير ، والذى اكتشف عام ١٨٧٢ ، ولم يلبث أن فقد أثر اكتشافه ، ومن ألطف ما جاء فى القصة التى نقشها الفينيقيون المكتشفون ــ بدايتها ، حيث يقولون فيها : « نحن أبناء كنعان ، ومن أهل صيدا مدينة السلطان ! إنها التجارة التى دفعت بنا إلى هذه الشواطىء النائية ... » .

وإذا كان كولومبس هو الذى طلب من الملك الإبحار إلى الهند عن طريق الملاحة « غربا » ، فإن عبد الناصر هو الذى طلب من مصطفى أمين الاتصال بالأمريكان « سرا » وإذا كان كولومبس قد عاد إلى أسبانيا مكبلا بالأغلال بعد أن أتم اكتشافاته ، فإن مصطفى أمين مضى إلى السجن بعد أن أنجز « اتصالاته » .

ندما صدر كتاب هيكل « بين الصحافة والسياسة» ، والذى عرض فيه بالأخوين أمين وعلاقتهما بالدوائر الأجنبية كعملاء ، نشرت جريدة الوفد أن هيكل استضاف بعض رجال المـال والصحافة فى نزهة بحرية على يخت خاص بين مدينة « كان » وجزيرتى كورسيكا وسردينيا ، وقالت إن تكاليف هذه النزهة بلغت ستين ألف دولار ، وبناء على ذلك بعث هيكل ردا إلى الأستاذ فؤاد سراج الدين استنكر فيه ما نشرته الجريدة تماما ، وأوضح أنه لم يزر فى حياته « كان » أو سردينيا مطلقا ، لكنه بدأ فى ختام رده وكأنه يرد من خلال السطور على مصطفى أمين ، حيث توقع بذكائه أن يكون هو مصدر الخبر .. « ناس يعجزون عن مواجهة رأى برأى وحقيقة بحقيقة ــ إذا كانوا يملكون من الرأى والحقيقة شيئا ــ فإذا كل القضايا الكبرى (تارات)[*] شخصية ، وإذا الأسلحة سموم متخلفة من بقايا عصور تحكمت فيها قصور السلاطين بدسائس « شماشرجية »[**] البلاط وجوارى الحريم » ويستطرد هيكل فى رده بعد أن يعاتب جريدة الوفد على التسلل الذى جرى فيها لأهواء وأغراض شخصية.. » .. ولقد كنت أعرف منذ أن ظهر آخر كتاب لى فى اللغة العربية بعنوان : بين الصحافة والسياسة ــ أن الذين يعجزون أمام الحقائق والوثائق فيــه سوف يحاولون الرد بوسائل أخرى ، ولكنى ــ وبصراحة ، وبغير لف أو التواء ــ لا أعرف مصلحة للوفد أو لجريدته فى أن يصبحا مطية لهذه الأهواء والأغراض .. » .

ولقد أرشدنا هيكل فى رده هذا إلى عين اليقين ، ووضع الباحثين فى

---

(*) لفظ عامى فصيحه ثأر ، وثارات ، وتسهل الهمزة فيصير : ثارات ، ومفردها : ثار ، والعامة تنطقه تار وتارات حيث لا وجود للثاء عندهم إلا عنـد اللثغ فإنهم يقلبون السين ثاء ، وإذا ارادوا النطق بالثـاء نفسها قلبوها سينا .

(**) (شمرج) الثوب ونحوه شمرجه : خاطه مباعدا بين الغرز . والكلام : خلطه .

حقيقة اتصالاته هو و « الأخوين أمين » بالأمريكان ـــ أمام بيت القصيد • فتحت عنوان « حقا إذا لم تستح فاكتب ما شئت » يقول الدكتور إبراهيم عبده مرتكزا على كتاب هيكل « لمصر لا لعبد الناصر » : « •••• يريد هيكل أن يقول إن ما كتبناه فى سيرة عبد الناصر كان تنفيذا لمخططات قوى عالمية ، وعين منها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ••

وأدهشنى أن يصورنا هيكل عملاء لوكالة المخابرات الأمريكية وهو نخصصه وحده ، فيما تقول الألسنة وتسجل الأقلام ، وصلاته هو بوكالة المخابرات الأمريكية حديث مشهور ومعروف ، وقد تردد فى أكثر من وثيقة ، ونشر فى أكثر من كتاب •• تحدث فى هذا خروشوف ، وزعموا أنه أبرز ( وفى رواية أخرى مأخوذة عن كتاب مايلزكوبلاند « بغير عباءة أو خنجر » ، ووردت فى المقال ذاته ـــ أنه ذكر فحسب ) أمام عبد الناصر أرقام الشيكات وتواريخها ، وهى الشيكات التى قدمتها له وكالة المخابرات الأمريكية ، وادعى هو أنها أجور مقالات ••• » •

وواقع الأمر أن ما كتبه الدكتور إبراهيم عبده يبدو كما لو كان مكتوبا بمداد الانفعال ، وهو الأمر الذى ربما جعله لا يكلف نفسه مشقة البحث عن قلم المنطق ، فلا ريب أنه لم يأت بجديد مطلقا : فكلنا يعرف عن صلات هيكل بوكالة المخابرات الأمريكية كحديث مشهور ، ويعرف أيضا أن هذا الأمر هو ما تقول الألسنة وتسجل الأقلام ، ويعرف ـــ ربما ـــ عما ورد فى حديث الرئيس محمد نجيب لمجلة الحوادث (١٩٧٣) فى شأن رفضه مقابلة هيكل أربع مرات ، لأن المخابرات المصرية قدمت له تقريرا عنه جاء فيه أنه متصل بالأمريكان ، وأنه كان يتقاضى راتبا شهريا من عبود باشا ، ويعرف أيضا عن اتهام خروشوف لهيكل بالتهمة ذاتها ، ويعرف أن البعض زعموا أنه أبرز أو ذكر للرئيس عبد الناصر أرقام الشيكات وتواريخها ، والتى تسلمها هيكل من وكالة المخابرات الأمريكية•

وعلى الجانب الآخر فإننا عارفون ، بل ومتيقنون أن « الأخوين

أمين » كانا على علاقة مباشرة بالأمريكان ، من واقع ما نشر من أوراق ومستندات ووثائق ورسائل فى كتاب هيكل : بين الصحافة والسياسة ، وفرق كبير بين أن تعرف وأن تتيقن ، وفرق أكبر بين أن يكون الأمر حديث مشهور تقوله الألسنة وتسجله الأقلام •• وزعموا •• وذكر فى رواية وأبرز فى أخرى •• وأن يكون الأمر مدعما بالأسانيد والأدلة ، فالمسألة هنا إذن مسألة وثائق وذلك هو عين اليقين وبيت القصيد •

وحينئذ تصبح دعوى تعاون هيكل مع المخابرات المركزية الأمريكية محض افتراء ، ويكون الحكم فيها بالبطلان لعدم كفاية الأدلة • بيد أن هيكل ليس بحاجة إلى المثول أمام لجنة تحقيق فيدرالية ، لفحص وتحرى اتصالاته مع الأمريكان ، فهو لا يخفى مثل هذه الاتصالات مطلقا ، بل ويتناولها من تلقاء نفسه كلما سنحت الظروف ، كما يفهم القارىء المدقق لكتاباته خلال الفترة السابقة لقيام ثورة يوليو ــ أنه كان واحدا من أبرز ثلاثة كتاب ( هو ومصطفى أمين وكريم ثابت ) يعتقدون فى إمكان أن تحل الولايات المتحدة الأمريكية محل بريطانيا فى مصر •

ويبدو من قصة أول تكليف رسمى لهيكل من قبل عبد الناصر فيما يتعلق بمد جسور العلاقات المصرية الأمريكية ( كان ذلك فى أواخر أكتوبر ١٩٥٢ ، وطبقا لرواية هيكل نفسه فى كتابه ملفات السويس ) يبدو من هذه القصة أن اتصالات هيكل **بالأمريكان ربمــا تعود إلى بضع ســنوات سابقة على قيام الثورة** (١) ، ويظهر منها ايضا ان تاريخ اول لقاء بينه وبين عبد الناصر ، والذى اختلفت الروايات والتقديرات حوله أيما اختلاف ، **ربما يعود هو الآخر إلى النصف الثانى من عقد الأربعينيات (٢)**.

فمن غير المعقول أن يقوم عبد الناصر بتكليفه بالمهمة التالية دون أن يكون هيكل محل ثقة شديدة لدى عبد الناصر ، تستوجب ــ منطقيا ــ تعارفا يضرب بجذور عميقة فى أرضية الزمن ، وكذلك ليس معقولا أن

يطلب عبد الناصر من هيكل طلبا كهذا إلا إذا كان عارفا بمـدى وقوة اتصالات هيكل مع الأمريكان .

يقول هيكل فى هوامش الحلقة الثامنة من كتابه ( ملفات السويس ) :
« فى أواخر أكتوبر وأوائل نوفمبر ١٩٥٢ تصادف أن كنت مسافرا إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، لمتابعة معركة الرئاسة الأمريكية ، وطلب منى عبد الناصر أن أجرى بعض الاتصالات مع من اعرف من الصحفيين والساسة فى الولايات المتحدة ، حتى استكشف نواياهم إذا استطعت فيمـا يتعلق بصفة الأسلحة مع مصر ، وكانت السفارة الامريكية فى القاهرة قد اخطرت واشنطن عن سفرى ، واضـافت إليه ( إلى الإخطـار ) اننى وثيق الصلة بجمال عبد الناصر ، وهكذا وجدت ابوابا كثيرة مفتوحة امامى فى العاصمة الامريكية .. وكان ممن قابلتهم فى وزارة الدفاع الأمريكية الجنرال أولمستيد : المشرف يومها على برامج المساعدات الأمريكية الخارجية ، وقد فتح معى بغير تمهيد فكرة إقامة حلف عسكرى إسلامى تنضم إليه مصر بوصفها أهم بلد اسلامى ، وباكستان باعتبارها أكثر البـلاد الإسلامية سكانا ، وتركيا باعتبارها أقوى البلاد الإسلامية عسكريا ، وحاولت أن أشرح للجنرال أولمستيد ظروف مصر والعالم العربى ، والتيارات والأفكار السائدة فيهما ، ونزعات التحرر والاستقلال التى تجتاحها ، ولكن الجنرال أولمستيد راح بمؤشر طويل يجرى على خريطة كبيرة للعالم ويقول لى : فى أوروبا الغربية حلف الأطلنطى يدافع عن العالم ، وفى أقصى الشرق هناك حلف جنوب شرق آسيا ، وأما فى منطقتكم من العالم فهناك كما ترى فى الخريطة فراغ عسكرى .. وقلت للجنرال أولمستيد : إن الأمور على الطبيعة تختلف عنها على الخرائط .. » .

وإذا كانت النتيجتان السابقتان (١) و (٢) صحيحتين فإن مراهنة هيكل على عبد الناصر وعدم اشتراكه فى لعبة محمد نجيب وانزلاقه كما انزلق آخرون فى تأليهه تؤكد بما لا يدع مجالا للشك النتيجة الثانية كما يؤكد النتيجة الأولى أن هيكل كان مراسلا حربيا لأخبار اليوم فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ، وأنه قام بتغطية أخبار الحرب الكورية ١٩٥٠ ، وكان يختار دائما للمهام الصحفية الكبرى ذات العلاقة بالسياسة الأمريكية أو التى تلعب فيها السياسة الأمريكية أدوارا مهمة .

ولكل ما سبق فإن رواية أحمد حمروش حول أول لقاء يجمع بين عبد الناصر وهيكل رواية باطلة منطقيا ، وإن كان من الممكن حدوثها فى الواقع ، وهو أمر يبدو غريبا للغاية ؛ يزعم الأستاذ أحمد حمروش أن حلقة الاتصال بين المسئولين الأمريكيين والضباط الأحرار لم تتسع رغم اعتمادهم ( أى الأمريكيين ) على الصحفى المقرب منهم : محمد حسنين هيكل رئيس تحرير آخر ساعة فى ذلك الوقت ـ لأن هيكل لم يكن قد تعرف بجمال عبد الناصر أو غيره من قادة تشكيل الضباط الأحرار حتى هذا الوقت أو أكتسب ثقتهم ، ويمضى الأستاذ حمرش فيقول : إن مصطفى أمين أرسل هيكل ورفيقا له إلى محمد نجيب ( ذكرنا قبلا أن محمد نجيب قال فى حديث لمجلة الحوادث (١٩٧٣) أنه رفض مقابلة هيكل أربع مرات لعلمه بأنه عميل للمخابرات الأمريكية ، بعد عودته من مقابلة مع د. محمد هاشم وزير الدولة فى وزارة حسين سرى [*] ، ليتعرفا منه ( أى

(*) تشكلت هذه الوزارة يوم ٢ يوليو ١٩٥٢ وتعد هى الوزارة السرية الخامسة والأخيرة ، وقد انتهى عمرها يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ مع ظهور بوادر حركة الجيش وبعدها شكل احمد نجيب الهلالى باشا وزارته الثانية ، والتى استمرت ثمانى عشر ساعة فقط ، لتتشكل بعدها وزارة على ماهر الرابعة بمرسوم ملكى صدر من قصر المنتزه يوم ٢٤ يوليو ١٩٥٢ ، ومما يذكر انه ورد خطأ فى رواية احمد حمروش ان محمد هاشم كان وزيرا للدولة فى الوزارة السرية الخامسة والصحيح انه كان وزيرا للداخلية .

من نجيب ) على رأى الضباط الأحرار فيما وجهه إليهم الوزير هاشم من اتهامات خاصة بتحريضهم ضباط الجيش على الثورة ضد النظام ٠٠ ويستطرد الأستاذ حمروش قائلا :

« أنه لم تكد تمضى لحظات على لقاء نجيب بهيكل ورفيقه حتى وصل جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر والتزما الصمت ، حتى لا يدور الحديث مع نجيب أمام الآخرين ، وهنا طلب هيكل تعريفه بالضابطين ، وكان هذا هو اللقاء الأول بين عبد الناصر وهيكل ٠

ويؤكد بطلان هذه الرواية أيضا حديث هيكل الطويل عن صلاته الوثيقة بعبد الناصر منذ حرب فلسطين ، والوارد فى كتاب فؤاد مطر « بصراحة عن عبد الناصر » ومن ثم فإن رواية الأستاذ حمروش حول أول لقاء يجمع بين عبد الناصر وهيكل ــ إذا قبلنا بصحتها بنسبة مائة بالمائة ــ تعنى أن عبد الناصر وهيكل تعمدا إخفاء العلاقة الوثيقة التى تربط بينهما أمام بقية الحاضرين !

.................

« ... كانت الظروف التاريخية السائدة فى البحر المتوسط ظروفا مواتية على ما يبدو ، من حيث انه لم يكن يوجد آنذاك خصم قوى او دولة منافسة ٠٠ وكان لابد من الانتظار حتى نهاية القرن التاسع والنصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد حتى نرى اليونانيين يشاركون فى المغامرة الكبرى فى البحر المتوسط ٠٠ ويبدو أنه كان من بين الأهداف التى شيدت من اجلها مدينة قرطاجة مراقبة واحتواء هذا الوجود اليونانى الذى أصبح مصدر إزعاج مطرد ولسوف تصبح قرطاجة التى أنشأها الفينيقيون فى نحو ٨٢٥ ــ ٨١٩ قبل الميلاد لتكون فى آن معا قاعدة حربية ومركزا تجاريا

كبيرا – عاصمة المدن الفينيقية فى غرب البحر المتوسط : تنهض بالدفاع عنها وتتولى حماية مصالحها »[*] .

.................

يذكر هيكل فى كتابه « ملفات السويس » خلاصة المنهج الذى كانت تقوم عليه السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية خلال الفترة من (٥٣ – ١٩٥٩) بقوله : « كنت واحدا من الذين سمعوا جون فوستر دالاس[**] يقول : إن المنطقة ( الشرق الأوسط ) هى نقطة الارتكاز فى العالم الحديث كله ، وأوروبا الغربية التى كانت تمسك بمفاتيحها لم تعد قادره فى الظروف العالمية الجديدة وموازينها – أن تمسك بهذه المفاتيح . وكان دالاس يقول هذا الكلام ويلح عليه ويبدو وكأنه يريد من كل واحد من سامعيه أن يوافقه بغير تحفظ عليه .. ربما كان دالاس فى الأصل سليل أسرة من القسس ، فقد كان إلحاحه يحمل صبغة تبشيرية ، وقد نظر إلى فى نهاية حديث ألقى على فيه موعظته ثم أضاف ملوحا بسبابته : يجب أن تؤمنوا .... » .

ومن الواضح أن دالاس كان « يبشر » بتعاليم خليقة بالاحترام – من وجهة النظر الاستعمارية على الأقل – لكنه كان يخاطب الجموع بعيدا عن « جسم المسيح السرى » فحور فى رسالته وغير فى مسمياتها

---

(*) محمد فنتر : على هدى الفينيقيين ، رسالة اليونسكو ، العدد ٢٧١ ، ص ٦ ، ديسمبر ١٩٨٣

(**) جون فوستر دالاس : (١٨٨٨ – ١٩٥٩) ، قانونى وعضو مجلس الشيوخ الأمريكى كان مندوب الولايات المتحدة بالأمم المتحدة (٤٥ – ٤٨ و١٩٥٠) . اختاره أيزنهاور وزيرا للخارجية (٥٣ – ١٩٥٩) ، وعرفت سياسته الخارجية بسياسة حافة الحرب . عارض عدم الانحياز ، وسحب تمويل مشروع السد العالى . لم يتخذ موقفا واضحا من تأميم قناة السويس ، ولكنه أنكر استخدام فرنسا وبريطانيا والكيان الصهيونى للقوة فى حرب السويس ١٩٥٦

وبدل قانون الزمن ، والأدهى من ذلك أنه حذف من « الموعظه » اهم أسرارها ، ورغم ذلك فإن تلاميذه يريدون من الضعفاء أن يرددوا اليوم ما قاله « يسوع » عندما وصل إلى الأعالى « طوبى لصانعى السلام لأن أرواحهم ستقطن فوق المعركة ... » .

وما رواه هيكل حول أفكار دالاس السابقة ، تلك التى تعرف فى الأدبيات السياسية بنظرية « حافة الحرب » — حدث إبان زيارة دالاس للقاهرة قبل حرب السويس ، وهى الزيارة التى شملت « طقوسها » تصريحا أدلى به وزير الخارجية الأمريكية عقب وصوله إلى مطار القاهرة ، أعرب فيه عن اهتمام الإدارة الأمريكية بالدفاع عن الشرق الأوسط واهتمامها أيضا بإتمام الجلاء المرحلى للقوات البريطانية عن قاعدة قناة السويس ، كما تضمنت إجراء محادثات مع المسئولين فى مصر آنذاك ، وقد حضرها هيكل وسجل محضرا شبه كامل لتفاصيلها على ظهر نسخة من البيان الذى ألقاه دالاس فى مطار القاهرة ، حيث لم يجد فى جيبه ليلتها — على حد قوله — ورقة أخرى غيرها .

ترى هل آمن هيكل بموعظة دالاس وكفى ؟ أم أن الإيمان تمكن من قلبه فتطوع بحمل لواء التبشير فى المنطقة ، أم أنه « كفر » بهذه التعاليم ونظر إلى الأمر باعتباره « نزهة إيمانية » فاشلة ، أم أنه كفر بها وفعل بها مثلما فعل « الأسخربوطى » !

إن المواقف التى سجلها هيكل فيما يتعلق بمجريات العلاقات المصرية الأمريكية فيما بعد ، والأخرى التى سجلها بشأن السياسات الأمريكية فى المنطقة ككل ، تؤشر بوضوح إلى إيمانه إيمانا ذاتيا بالموعظة ، ربما يطبق إعلانها بكثير ، بيد أنه إيمان من نوع خاص جعله يغير ممارساته فى إطار موقفه الثابت ، حتى تذبذبت به تلك الممارسات إلى نقطة الكفر تقريبا ، وليس أدل على ذلك من موقفه بخصوص انسحاب الولايات المتحدة

من المساهمة فى تمويل مشروع السد العالى ، ودعوته إلى تحييدها فيما بعد ، ثم دعوته إلى تحسين العلاقات معها فى بداية السبعينيات ، واستمرار واستقرار علاقاته الوطيدة مع كبار رجال المـال والسياسة والصـحافة والفكر فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية ، رغم كل هـذه التقلبات ، ثم طلبت أمريكا وساطته فى حل مشكلة الرهائن الذين احتجزهم الطلاب الإيرانيون فى السفارة الأمريكية فى طهران عقب قيـام الثورة الإيرانية .. يقول الدكتور فؤاد زكريا فى كتابه « كم عمر الغضب » !

« .... إن المنحى العام لكتابات هيكل فى مراحلها المختلفة يقنع كل من يتابعها بدقة أنه كان يرتبط مع أمريكا بعلاقة حميمة جدا ، أما الانتقادات التى يوجهها إليها فإنها الاستثناء الذى يؤكد القاعدة ، لأن أصدقاء أمريكا إذا كانوا أذكياء لابد أن يهاجموها من وقت لآخر .. » .

كتب الأستاذ على أمين فى مجلة آخر ساعة (١٨/٦/١٩٥٢) :

يقول : « ... بحثت عن شاب يعمل بجانبى كما كنت أعمل منذ ١٨ عاما بجانب الأستاذ التابعى ، شاب يتحمل أعصاب رئيس التحرير ثم يتعلم وظيفة رئيس التحرير ، واخترت عددا من الشبان الأكفاء ، ولكن بعضهم سقط فى منتصف الطريق ، وكان آخر هؤلاء الشبان هو محمد حسنين هيكل . وأحب أن أعترف أنه كان آخر من فكرت فيهم ، لأننى كنت أصر على أن يبقى فى العمل الذى نبغ فيه وهو الباحث عن المتاعب : فقد كانت أخبار اليوم ترسله بالطائرة وراء كل انقـلاب فيقيم الدنيـا ويقعدها بتحقيقـاته الصحفية ، وكنت فى نفس الوقت أخشى عليه من التجربة كما يخشى الأب على إبنه إذا ركب طائرة أو دخل مغامرة ، فإننى أشعر أن هيكل ابنى ، اكتشفته ودفعته إلى الأمام فإذا به يصبح نجما من نجوم الصحافة وهو فى سن الرابعة والعشرين ، ولذلك كنت أخاف عليه وأخاف على اكتشافى من أن يدخل فى امتحان جديد ، ولكنه دخل التجربة ونجح ، فلمع فى الدار وإن لم يخرج نوره إلى الشارع .. » .

لكن القرطاجى التائه كان قد دخل التجربة قبل كولومبس بنحو عشرين قرنا من الزمان ، وخاضها بحنكة « البحار » الذى يخوض عباب البحـار .

وعلى عادة الفينيقيين الذين كانوا يحتفظون لأنفسهم بأسرار الطرق التجارية حتى تظل التجارة دائما فى أيديهم ، كان هيكل يحتفظ بأسرار تجاربه الخاصة لنفسه ، وفى الوقت ذاته يراقب تجارب الآخرين من خلال قاعدته القوية فى قرطاجة ، ويرصد تحركات المنافسين بالأوراق والمستندات وفى غضون أعوام قليلة استطاع القرطاجى التائه أن يستخرج الضحكات من أحشاء التاريخ على كولومبس ، الذى ادعى ذات يوم شرفا ما كان ينبغى له أن يدعيه ، وأقسم بأغلظ الأيمان والوثائق والمستندات أنه هو أول من اكتشف ذلك العالم الجديد .


الزراعة الراقيّة

ليس ثمة شك فى أن هيكل مولع بالسويس •• ففى عام ١٩٨٦ نشر لهيكل كتابه الشهير « ملفات السويس •• حرب الثلاثين سنة » ، وكان قد كتب قبله « قصة السويس آخر المعارك فى عصر العمالقة » فى عام ١٩٨٢ ، وقبلهما كان قد صدر له كتاب ثالث عن السويس بعنوان « خبايا السويس » ويرى الأستاذ هيكل الذى أطلق على قوانين يوليو ١٩٦١ السويس الاشتراكية أن الأخيرين لم يكونا كتابين عن السويس بالمعنى المألوف : فقصة السويس فى رأيه يعود إلى ذكرى العيد العشرين للعدوان الثلاثى ، حيث كتب وقتها عشر مقالات حول حرب السويس ، وحيث لم يكن أحد قد اقترب من هذا الموضوع ، وبعد أن مضت عدة أعوام على كتابة هذه المقالات جمعها وعرضها بأسلوب معين ــ على حد قوله ــ وهكذا لم يكن « قصة السويس » كتابا عن السويس • أما « خبايا السويس » ( والكلام لا يزال للأستاذ هيكل ) فهو عبارة عن مجموعة أخرى من المقالات والأخبار والتعليقات التى تعرض بها هيكل لكتاب هيود توماس عن حرب السويس ، وبذلك لم يكن كذلك كتابا عن السويس • فماذا إذن عن قطع ذيل الأسد ؟!

يقول هيكل إن « ملفات السويس » المعنون بالإنجليزية . قطع ذيل الأسد ، كان فى الأصل كتابا عن الصراع فى الشرق الأوسط ، تناول حرب السويس باعتبارها جزءا من هذا الصراع ، لكن الناشرين طلبوا تركيزا خاصا على حرب السويس فى الطبعة الإنجليزية ، لتساير مناسبة مرور ثلاثين عاما على هذه الحرب ، ومن هنا تحول الصراع الشامل فى المنطقة إلى مدخل للكتاب ، وصارت السويس هى القضية الأساسية فيه •

ومن رأى هيكل أن الكتاب جاء على هذا النحو من منظور قد لا يكون موجودا فى عالمنا العربى ، ولذلك فإنه جعل الصراع كله هو

القضية الأساسية عندما ترجم كتابه إلى العربية ، فأصبح هذا الصراع متوازيا تقريبا مع حرب السويس •

كتب الأستاذ أحمد بهاء الدين معلقا على « ملفات السويس » فى جريدة الأهرام (١٩٨٦/١٢/٥) : « ••••• كتاب محمد حسنين هيكل عن حرب السويس هو أهم كتاب فى فن وعلم التاريخ قرأته فى اللغات العربية والأجنبية من سنوات طويلة •• إنه ذلك الكتاب الذى يلغى سائر الكتب ، أى يلغى كل ما كتب قبله عن هذا الموضوع ، وما سوف يكتب بعده سيكون معتمدا عليه كمرجع أساسى ، فالمؤلف توافرت له مجموعة عوامل مهمة : انه شخصيا كان فى قلب تلك الأحداث ، وأنه يمتلك شخصيا مجموعة ضخمة من الوثائق الأصلية لهذه المرحلة ، وأنه مد جهده واطلاعه إلى كل ما نشر من مؤلفات ، وكل من على قيد الحياة من شخصيات ، وكل ما يوجد من وثائق بريطانية وأمريكية بما فيها مصادر لم يسبق إليها أحد : كالأوراق الخاصة ببعض الرؤساء الأمريكيين فى مكتباتهم التذكارية ، فهو قد استخدم كمية لا مثيل لها من الوثائق المدعمة الثابتة عن هذا الحدث •• فالكتاب الأكثر من تسعمائة صفحة فيه ثلاثمائة صفحة من الوثائق كاملة ، مما لا أعرف له نظيرا •

الأمر الثانى أنه لم يقف عند الحدود التقليدية التى وقفت عندها كل المؤلفات عن حرب السويس ، ولكنه وسع دائرة العدسة بحيث شملت كل جذور الصراعات الدولية والإقليمية التى ما كانت حرب السويس إلا نقطة انفجارها المدوى بعد تفاعلات عميقة وكثيفة وبالغة التعقيد •• فالكتاب ليس عن حرب السويس ، ولكنه بدرجة كبيرة عن تاريخ المنطقة وتاريخ الصراع الدولى فى تلك الحقبة من الزمن ، التى تغيرت فيها موازين قوى العالم كله ••

الأمر الثالث أن هيكل ، وقد حشد كل ما سبق ، كانت لديه ثقافة قارىء التاريخ ودراسته ، وجاذبية الكاتب الصحفى فى العرض ــ فرسم

هذا الكم الهائل من المعلومات والتحليلات ، ورد الأحداث إلى أصولها ، والوقائع إلى أسبابها فى نسيج جميل أخاذ كنسيج القطعة النادرة من السجاد العجمى ، السنتيمتر الواحد منها يحتوى على مائة عقدة ، ولكنها تبدو للعين صورة متكاملة خلابة » .

نحن إذن أمام مرحلة جديدة من مراحل تطور فن الكتابة عند هيكل ، أو فى ذروة مرحلة مهمة للغاية من هذه المراحل . نحن فى مرحلة « الزراعة الراقية » التى تجعل خبايا السويس أشبه ما يكون بمجتمع الصيد ، ذلك المجتمع الذى يعيش فيه الإنسان متنقلا خلف فريسته ويمارس أساسا التقاط الثمار والجذور ، والذى بدأ يتعيش الإنسان فى مرحلته العلوية على القنص ويحط رحاله فى بعض الفصول فى مخيمات قريبة من منابع الصيد . وبوجهة النظر ذاتها فإن « ملفات السويس » يقترب بكتاب هيكل السابق له : قصة السويس من مجتمع الرعى ، حيث يكون القتال هو المهنة الرئيسية لإنسان هذه المرحلة ، من أجل انتزاع المراعى والدفاع عن الماشية ، وحيث يؤمن الناس فى تلك المرحلة باتحاد أجدادهم ، ويتحول الزعيم القائد بعد وفاته بمفعول الأساطير إلى « بطل خارق » للطبيعة .

ومن هذا المنظور المجازى ذاته جاء « ملفات السويس » بحق تعبيرا عن مرحلة الزراعة الراقية فى مراحل تطور المجتمع البشرى ، متخطيا برشاقة الإنسان الرعوى مرحلة الزراعة البدائية . وبذلك عد هذا الكتاب ثورة فى مجال الكتابة عن حرب السويس كما عدت الزراعة الراقية أول ثورة كبرى فى عالم الاقتصاد . ففى هذا الكتاب استبدل هيكل بالمحراث « عصا البدائيين المعقوفة » ، واستقر بصفة نهائية على قطعة دائمة من الأرض راح يوالى زراعتها عاما بعد عام ويقلبها بمحراثه ، فمكنته حياة الاستقرار من دراسة « الفلك » ووضع « التقاويم » وتطوير « القوانين » كما عرف النول الذى صنع على فتائله ذلك النسيج النادر الأخاذ الذى عثر عليه الأستاذ بهاء الدين فى ملفات السويس .

ولقد أسفر الانتقال إلى مرحلة الزراعة الراقية عن نتائج اقتصادية واجتماعية خطيرة ، ربما كان من أبرزها ظهور الأسرة البطريركية ، وفى إطار هذا المعنى يتساءل الأستاذ محمد أبو علم فى جريدة الوفد (١١/١٢/١٩٨٦) وأين ملفات اليمن وملفات ١٩٦٧ ! وكأنه يدعو بذلك إلى ضم الزوجات والأولاد والأحفاد فى وحدة متكاملة تنتسب إلى الأب ! ( ذكر الأستاذ أحمد بهجت فى مقال له فى جريدة الأهرام سوف نشير إليه ـ أن ملفات السويس هو الجزء الأول من الثلاثية السياسية التى تتعلق بالحروب التى خاضتها مصر فى أعوام ١٩٥٦/١٩٦٧/١٩٧٣ ) يقول الأستاذ أبو علم فى مقاله هذا : « .... وكعادتنا فى كل الحروب كانت لدينا قدرة عجيبة على قلب الهزيمة نصرا مبينا بالتزييف والكذب والتلفيق .. لقد تلت حرب السويس خمس سنين قضيناها فى مستنقع اليمن السعيد ، ولابد أن لدى الأستاذ هيكل ملفات عديدة عن تلك الحرب المشئومة .. لدى الأستاذ هيكل ملفات ووثائق ومستندات .. نحن نريد منه أن يحدثنا عن بواعث تلك الحرب وأسبابها .. كم أنفقنا فيها .. كم جنديا وضابطا أهدرنا دماءهم على أرض اليمن .. كم مليونا من الدولارات أنفقنا كل يوم هناك .. وكم كيسا من الذهب وزعناها على شيوخ القبائل هناك .. وكم كيسا من الذهب سرقناها هنا حتى تعرى اقتصادنا القومى من غطائه الذهبى .. نريد أن نعرف منه ما هو أهم : هل انتصرنا فى تلك الحرب أم أصابنا الفشل ولحقت بنا الهزيمة ؟..

ويستطرد الأستاذ أبو علم : « وبعد ذلك لا أريد أن أثقل على الأستاذ هيكل فى حديث الهم والغم والكرب العظيم الذى دمر حياتنا فى ٥ يونيو ١٩٦٧ ، والتى أسماها الأستاذ بالنكسة ، فهو ولا شك محيط بكل ظروفها وأحوالها ، فهل يتكرم ويحدثنا عنها هى الأخرى .. الأستاذ هيكل عنده ( عن ملابساتها وأسبابها ووقائعها ) الخبر اليقين ، فهل يتكرم علينا بفتح الملفات .. » ونحسب أن الأستاذ أبو علم فاته أن مرحلة

الزراعة الراقية لم تعرف الأسرة البطريركية إلا تدريجيـا وعلى مراحل غير منتظمة !

أما الأستاذ زكريا نيل فيبدو فى تعليقه على ملفات السويس فى جريدة الأهرام (٢٠/١٢/١٩٨٦) وكأنه يشير إلى نتيجة ثانية من النتائج التى ترتبت على الانتقال إلى مرحلة الزراعة الراقية ــ وإن لم يذكر ذلك بالفعل : فهو يقول فى تعليقه ، وبعد أن ينتهى من التأكيد على أن ملفات السويس يعد موسوعة وثائقية تأتى فى مرحلة يحاول فيها ( الصراع ؟! ) الدولى أن يعيد هيمنته الكاملة على المنطقة بأسرها ، يقول بعد ذلك : « .... المبهر فى ملفات السويس أنها حققت أرقاما مذهلة فى مجال ما ضمته من وثائق ، بعضها كان شديد الندرة وبعضها الآخر كان بعيد المنال ، وأنها اخترقت كل الحواجز الجامدة لتكون القصة المثيرة التى يخيل لقارئها أنها وقعت منذ زمن ليس بالطويل ، فى حين أنها قطعت من حساب السنين ثلاثين عاما .. وعلى الرغم من ذلك أيضا فهى نمط مدهش من صياغة مقتدرة لا يزال صاحبها منفردا بخاصيته فى كتابة السهل الممتنع من المقالات ... » .

وهكذا يشير الأستاذ زكريا نيل ــ ضمنا ــ إلى بروز الملكية الخاصة كمفهوم أساسى خلال مرحلة الزراعة الراقية ، فإننا ها هنا أمام كاتب له أسلوب خاص فى الكتابة ، ويحتكم وبشـكل خاص على كم هائل من الوثائق ما بين شديد الندرة وبعيد المنال .

وفى موضع آخر من مقاله يؤكد الأستاذ زكريا نيل أن من طبيعـة الكتب الوثائقية أن تكون ثقيلة الهضم جامدة الكلمات تبعث على الملل ، وبذلك كان من شـأنها أن تكون للخاصـة من البـاحثين والمؤرخين والدارسين ، لكن المبهر فى ملفات السويس ( ولا يزال الكلام للأستاذ زكريا نيل ) أنها اخترقت كل الحواجز الجامدة . والذى لا ريب فيه أن إحساس هيكل بانتمائه للأرض التى يعيش عليها واستقراره فيها وقناعته التى لا تهتز بأنه لن يتركها تحت أية ظروف ــ هى التى مكنته من اختراق

هذه الحواجز الجامدة ، ودفعته إلى تمهيد السطح ، والانتفاع بما يضمه باطن الأرض ، فتملكه الإحساس بأنه يمتلك شيئا خاصا نجم عن استقراره فى بقعة معينة لا نظن أنه سيبرحها أبدا .

وحول ملفات السويس كتب أيضا الأستاذ أحمد بهجت فى جريدة الأهرام (١٩٨٦/١٢/٤) يقول :

« ... هناك فرق بين التحليل السياسى والدراسات الوثائقية ، وكتاب ملفات السويس .. ينتمى إلى النوع الأخير ، أنه عمل بحثى من طراز رفيع ، وهو دراسة بالوثائق التى يدهش المرء كثيرا أن يحصل عليها الكاتب ، ولكنه قد حصل عليها .. والأصل فى الكتابة التحليلية فى السياسة أنها قادرة على إضاءة المستقبل .. أما دراسة التاريخ الذى مضى فإنها تحتاج إلى إضاءة الماضى .. وأحيانا تكون معرفة ما حدث أصعب من التنبؤ بما سيحدث .. ورغم ذلك لقد نجح هيكل .. أن كثيرا من ضلالات الحاضر يعود إلى عدم قراءة التاريخ ، وقراءة كتاب الأستاذ هيكل : ملفات السويس يؤكد لنا أن المؤامرة على الشرق قديمة ، وأن النوايا التى تتكشف أطرافها اليوم هى نوايا قديمة .. وهذه هى أهمية معرفة حقائق التاريخ ... » .

وتحت عنوان : عندما قطعنا ذيل الأسد وذيولا أخرى ، كتب الأستاذ جلال عارف فى أخبار اليوم (١٩٨٦/١٢/١٣) يقول : « .. وبعد ثلاثين عاما يأتى هذا الكتاب بما يحويه من وثائق ثمينة ليضىء لنا مناطق ظلت مظلمة فى أحداث هذه الفترة ، ويجيب على تساؤلات مهمة ما زالت مطروحة رغم مرور ثلاثين عاما على الحدث الهائل ، ويضع أحجارا فى أفواه كثيرة افترت على الحقيقة وزورت التاريخ فى ظروف أستبيح فيها كل شىء فى العالم العربى .. حتى التاريخ !.. ويبقى فى ملفات هيكل عن السويس الكثير ، ولكن أهم ما فيها أنها تحاول ــ بالوثائق والشهادات ــ أن تزيح

غبار النسيان الطبيعى أو النسيان المطلوب ، فنكتشف من جديد أن صورة مصر الحقيقية كانت تختلف بكثير عما يحاولون تصويره .. اليوم .. » .

إن كلمات الأستاذين أحمد بهجت وجلال عارف السابقة تدعم بدرجة كبيرة صدق التصور المجازى الذى أسسنا عليه حديثنا عن ملفات السويس منذ البداية ، ليصير من المحتم علينا أن نقبل بأن ملفات السويس هى مرحلة الزراعة الراقية فى مراحل فن الكتابة عند هيكل ، تلك المرحلة التى تبلور فيها مفهوم الطبقة الاجتماعية ، والذى تولد فى الأساس عن ظهور الملكية الفردية ، ذلك أنه مثلما تعرف المجتمعات الطبقات أو الشرائح الاجتماعية كذلك تعرف الكتابات « الطبقات الفكرية » — إذا جاز التعبير — وهى طبقات ينبغى تشجيعها وليس القضاء عليها أو إزالة الفوارق فيما بينها . والمطالع لملفات السويس يجابه من اللحظة الأولى بكاتب من طبقة الجيتويين (*) أصحاب هذه الصيحة : كن رجلا ولا تتبع خطواتى ، وهؤلاء لا يجعلوننا نرى الدنيا بأعينهم ونشهد على الناس والأشياء بضمائرهم ، بل يعلموننا الاستقلال ، وهم بذلك جديرون بأن نقرأهم وأجدر بأن نحذرهم ، إذ أن لكل كاتب إيحاءاته وإيعازاته التى تندس إلى العقول من حيث لا تدرى !

إن ملفات السويس يقطع من الغلاف إلى الغلاف بتوافر جميع المراجع الأكاديمية المتاحة والموثوق فيها أمام كاتبه ، وفيه من المنهج ما هو خليق بأن يوصف بالدقة والبراعة : فى البحث والسرد وتأصيل الأحداث وتصنيفها ، وهو بالإضافة إلى ذلك موثق بالمستندات والوثائق التاريخية

---

(*) نسبة إلى يوهان فون جيته ، (١٧٤٩ — ١٨٣٢) ، شاعر وكاتب مسرحى وروائى ألمانى شملت عبقريته مجالات اخرى وبخاصة ميدان العلم ، درس القانون وجدد فى الشعر الغربى ، هاجم نظرية نيوتن فى الضوء وتأثرت كتاباته الفلسفية بفلسفة اسبينوزا ، من اهم اعماله : آلام فرتر ١٧٧٤ ، فاوست ١٨٠٨ ، الأنساب المختارة ١٨٠٩ ، ديوان الغرب والشرق ١٨١٩ ، إضافة إلى عدة مسرحيات وكتابات ادبية اخرى .

النادرة فى سجل البحوث التاريخية والعالمية ، وهو لكل ذلك يستصرح القارىء الواعى والمستقل منذ الوهلة الأولى ، وبأعلى صوته : كن رجلا ، ولا تتبع خطواتى ٠

ودعنا نردد ختاما لحديثنا عن ملفات السويس ما كتبه الأستاذ عبد العظيم أنيس فى جريدة الأهالى (٢٥/٢/١٩٨٧) ، حيث كتب يقول : « ٠٠٠ إن الكتاب كما يدرك هيكل نفسه لن يكون كلمة التاريخ الأخيرة فيما يتعلق بالعدوان الثلاثى أو السنوات الأولى للثورة ، لأسباب عديدة من بينها أن المؤلف نفسه كان أحد أقران هذه الأحداث التاريخية ، لكننى مع ذلك أتصور أن هذا الكتاب سيظل دائما أحد المراجع الأساسية لأى مؤرخ يتناول دراسة تلك المرحلة ٠٠ » ٠

ووجه الغرابة فى أمر هيكل أنه رغم وصوله إلى مرحلة الزراعة الراقية فى فن الكتابة ، مرورا بالمراحل السابقة عليها ، وعبر فترة زمنية ليست بالقصيرة ــ وذلك فى ضوء التصور المجازى الذى طرحناه ــ فقد عاوده الحنين قبل عام واحد فقط من صدور كتابه المعبر عن هذه المرحلة : ملفات السويس ، عاوده الحنين إلى الارتداد نحو مجتمع الالتقاط ، حيث تخضع المجتمعات البشرية لـ « سيادة الأم » ٠

وتفسير ذلك أنه نشر له فى العام ١٩٨٥ كتابه الأشهر : خريف الغضب ــ قصة بداية ونهاية عصر السادات ، والذى أثار جدلا عنيفا فى مصر وعلى المستويين العربى والعالمى ، بل إن الجدل الذى أثير حوله فى مصر كان سابقا على تداوله فيها !

ففى « خريف الغضب » أقام هيكل الدليل على إيمان إنسان مجتمع الالتقاط وما سبقه من مجتمعات بوجود حياة أخرى بعد الموت ، ولذلك فقد تطوع بوضع كل متعلقات السادات الشخصية فى قبره ( أى السادات ) كما أتى بالبرهان القاطع على أن حرفة « الجمع والالتقاط » كانت أولى

الحرف التى عرفها الإنسان بعد آن خرج من « الكهف » اثر « انحسار الجليد » عن الأرض •

يجيب محمد المـاغوط ردا على سؤال وجهه إليه محرر مجـلة المستقبل (١٩٨٣/٧/٢٣) هل قرأت خريف الغضب ؟•• لا لم أقرأ خريف الغضب ، ولن أقرأه ولن ألمسه !

ـ لمـاذا ؟!

ـ لأن الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل تحول والحمد لله إلى تاجر جثث لا أكثر ولا أقل فمنذ عشر سنوات ونيف وضع ـ قبر صديقه الروحى عبد الناصر فى كيس وحمله على كتفه ، وراح يدور به من مكان إلى مكان ، يبيعه يوميا للصحف اليومية وأسبوعيا للصحف الأسبوعية ، وبالجملة لدور النشر !•• وها هو الآن يضع قبر السادات فى الـكيس نفسه ويحمله على الكتف نفسها ويبيعه بالطريقة نفسها بانتظار الجثـة الثالثة ، بحجة أنه يزيح الستار عن أسرار كثيرة تتعلق باتفاقيات كامب ديفيد ، وما جرته على المنطقة من مصائب وويلات •• ولا يستغربن أحد أن كاتبا كبيرا مثل هيكل قد يفكر على هذا النحو ! إذ ليس كالعرب من يحول القضايا الشخصية إلى قضايا عامة والقضايا العـامة إلى قضـايا شخصية ، لا لم أقرأ خريف الغضب ، ولن أقرأه ، ولن ألمسه ، ففى ظروف الطغيان ليست البطولة أن نجلس على ظهور الدبابات بل أن نقف أمامها !!

والمـاغوط بتصوره هذا هو إنسان المرحلة : مرحلة الجمع والالتقاط والشيوعية الجنسية ، والذى يدين بالعقيـدة التوتمية (*) البـاحثة عن الخلاص عند يسار المعبد !

---

(*) التوتم Totem : صنف من الاشياء تقدسها الجماعات البدائية وهو عادة نوع من النبات او الحيوان الذى يوجد بكثرة فى المنطقة التى تعيش فيها الجماعة مثل الأسد أو الارنب ، ويعتقد أفراد هذه الجماعة ان جدهم =

بيد أن المفارقة العجيبة أن أصحاب العقيدة التوتمية من الواقفين فى يمين المعبد عبروا هم الآخرون عن شديد استيائهم لما جاء فى خريف الغضب ، وبلغ بهم حد الاستياء إلى اعتبار المسألة كما لو كانت نوعا من المحرمات ( التابو ــ Tabu ) فالسادات عند هيرمان أيلتس سفير الولايات المتحدة الأمريكية السابق فى مصر ــ كان لديه مبررا كافيا للقيام بحملة الاعتقالات التى نفذها فى سبتمبر ١٩٨١ ، وعنــده أن تغير ( ولم نقل تغييرا ) المفاهيم الأمريكية عن العرب من خلال السادات يعد عملا بطوليا مذهلا ، وأن السادات يستحق عن جدارة جائزة نوبل للسلام التى منحت له ! وعنده أيضا أن نجاح السادات فى أمور كثيرة تسبب فى إثارة الغيرة والسخط بين كثيرين من رفاقه فى مجلس قيادة الثورة وبعض المفكرين من أمثال هيكل ، وأنه من قبيل السفسطة القول بأن العالم العربى أصيب بالتمزق بعد عملية السلام ، ذلك أن هيكل يعلم جيدا الحلقة المفرغة من الصراع الشرس بين الدول العربية ، والذى وصل إلى ذروته قبل عام ١٩٦٧ (*) ولذلك فمن العيب أن ينتقد السادات على هذا النحو ، ولذلك أيضا فإن خرق هذا النهى الاجتماعى يعد خطيئة جزاؤها بيد قوى خارقة للطبيعة !

ولا يفوتنا أن هيرمان أيلتس الذى ذكر فى محاضرة له ألقاها فى

---

الأكبر يحل فى آحاد هذا النوع كما يحل فى كل طفل يولد للجماعة ، ومن ثم فهم يؤمنــون بوجود رابطــة قوية بينهم وبين التوتم ، فهم وذلك الشىء منحدرون من أصل واحد ، ومن أجل ذلك يقدسون هذا الشىء ، لــكن العشيرة قد تأكل هذا الشىء أيام المجاعات ، وهى تفعل ذلك بعد اعتذارها للتوتم وتأدية بعض الصلوات تكفيرا عن إثمها .

(*) وردت هذه الآراء فى حديث ادلى به هيرمان ايلتس مدير مركز العلاقات الدولية فى جامعة بوسطن وسفير الولايات المتحدة الأمريكية السابق فى مصر ــ فى حديث أجرته معه الواشنطن بوست الأمريكية ، ونشرته جريدة مايو لسان حال الحزب الوطنى الديمقراطى المصرى فى ١٩٨٣/٨/١٥

معهد الشرق الأوسط فى جامعة كولومبيا ( ١٣/٩/١٩٧٩ ) أن السادات ممثل بارع وانه يرى نفسه خبيرا فى الشئون السوفيتية ومن الصعب احيانا ان ياخذه سامعه ماخذ الجد ، وانه لا يظهر التسامح إزاء إبداء مساعديه ووزرائه اية معارضة لأفكاره ، كما ذكر ان السادات قد قبل حلولا وسط لمسائل اكد بصددها من قبل انه لن يتقبل اية تنازلات بشانها ، واشار إلى ان السادات بطبيعته وتفكيره السياسيين ومزاجه المتقلب بين التفاؤل والانطواء المتشائم كان قادرا على الانسحاب كلية من عملية السلام ، وأعرب أيلتس أيضا عن أسفه لعدم وجود ممثلين عن حزب اليسار فى مجلس الشعب فى أعقاب انتخابات ١٩٧٩

كما أكد فى محاضرته المشار إليها أسفه لكون معاهدة السلام قد أصبحت بعملية تنحية المعارضة عن مجلس الشعب جزءا من الكيان السياسى الداخلى المصرى وأن هذا لا يساعد المعاهدة ولا السادات .

ومن بين أصحاب العقيدة السالفة ذاتها جماعة تصب عقيدتها فى قالب دينى يرتبط بالعامل الاقتصادى ، وفى هذا القالب تتبلور شخصية « صانع المطر » الذى هو أشبه ما يكون بساحر قادر على استرضاء أرواح الأسلاف ، وحملها على جلب السحاب وإنزال المطر ، والذى يقوم على طقوس شبه دينية : كأن يذهب إلى مستنقع للمياه ويرتل نغمة سحرية ثم يأخذ قدرا من الماء فى يديه ويرتشف منه رشفة ثم يبصقه فى اتجاهات مختلفة ثم يصب الماء على جسده كما يرشه من حوله ثم يعود إلى مقره ، وإذ ذاك يفترض فى المطر أنه وشيك الحدوث .

---

(**) مصر والسادات والسلام ، محاضرة هيرمان ايلتس بجامعة كولومبيا – معهد الشرق الأوسط ( نيويورك – ١٣ سبتمبر ١٩٧٩ ) : وردت فى العدد (٥٩) من السياسة الدولية – يناير ١٩٨٠ ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، عرض د. ياسين العيوطى .

ولذلك فقد نظرت تلك الجماعة إلى خريف الغضب باعتباره فصلا سخيفا يهدد حياتها السحرية فمالت إلى استرضاء أرواح الأسلاف كما تعلمت من ساحرها العظيم وأخذت تستعطف القوى الجبارة المتحكمة فى الدنيا آملة فى رحمتها ومتجنبة غضبها .

(*) ( إيران فوق بركان ) كان اول كتاب لهيكل عام ١٩٥١ بالعربية ويقول أن الكتاب الأول لأى كاتب يشبه الحب الأول ذكرى تبقى معه إلى زمن طويل .


البيدق التاسع

« ... الرقعة باتساع العالم ، والمربعات قارات بأسرها ، الشطرنج عادة بين اثنين ، واللعبة الحالية بين ثلاثة ، مع إضافة اثنين من المتفرجين النشيطين هما : فرنسا وبريطانيا . القطع أمم وجيوش .. مئات الملايين من البشر .. السياسة الدولية فى زماننا ليست علاقات بالمجاملة الملساء وإنما السياسة الدولية مبادىء ومواقف وسياسات حية ونشيطة فاعلة ومؤثرة وقادرة على الإشعاع والإلهام .. »(*) .

وعالم اليوم الذى تتصارع فيه آلاف القوى والعوامل المتباينة تتوالد فيه عند كل لحظة عشرات من الأفكار والنظريات والتنبؤات المثيرة ، ومن ثم لم يعد بالإمكان أن يجمع الإنسان على قرار مرة واحدة ثم يدعه مستقرا مدى الحياة . ولكن يبقى دائما جد معقول من المبادىء والأهداف التى ينبغى أن يتبناها الفرد أو المجتمع مهما تغيرت الممارسات أو الظروف أو الأفكار .

وبالممارسة الفكرية السديدة استطاع هيكل حال بدء اشتغاله فى عالم السياسة والفكر أن يقف فى حلبة السياسة كمفكر جيد ، لا يعلل أو يفسر بكفاية فحسب بل يعم ويستنبط القواعد التى تقنن اللعبة السياسية الكبرى على مستوى العالم ، والأكثر من ذلك أنه صار بعد فترة وجيزة من اشتغاله فى هذا العالم مستخدما بارعا لمعلوماته وأفكاره فى الغايات العملية وخرج بها إلى حيز التطبيق .

ومن أهم قواعد اللعبة التى توصل إليها هيكل باستخدام الأدوات العقلية المعروفة كالملاحظة والذاكرة تلك القاعدة البسيطة التى تتلخص فى

---

(*) انظر : محمد حسنين هيكل ، نحو استراتيجية عربية جديدة ، جريدة الأهرام ١٩٧١/٧/٩

ـ محمد حسنين هيكل ، لتفتح عيوننا ، جريدة الاهرام فى ١٩٧١/١٢/١٠

أن المبادىء لا تتغير لكن الممارسات هي التى تتبدل وتتحول ، وأن الفكر لابد وأن يتطور ارتباطا بالمتغيرات الوطنية والقومية والعالمية •

وعلى ضوء هذه القاعدة لنا أن نتصور أن الأستاذ هيكل يجتهد دائما فى البحث عن المبادىء التى يمكن أن تحرك الممارسات بصدد قضية ما ، وعندما يتوصل إلى هذه المبادىء يشرع فى استخدام الأدوات العقلية الأخرى كالمخيلة والتداعى ، ليتحرى بها طبيعة الممارسات الواجبة بخصوص هذه القضية عند مرحلة زمنية معينة ( يدخل فى ذلك الزمن المستقبل ) وفى إطار نفس المبادىء • وعند هذا الحد من تصورنا السابق نستطيع أن نتخيل أن هيكل يدون دائما كافة الحركات التى يأتى بها اللاعبون الكبار وتصورات المشاهدين النشيطين بخصوص قضية ما ، واضعا فى اعتباره أن هناك بيدقا تاسعا لا وجود له على رقعة اللعب ، يمثل العامل الأكثر تأثيرا وفاعلية وقدرة على تغيير مجريات اللعبة وتحويل نتائجها ، ولأنه يتتبع دائما هذا البيدق ويتعقب حركته ، فهو يبقى دائما صاحب قدرة فائقة على التوقع وحسن التنبؤ والنظر الصائب نحو المستقبل •

ومن أبرز القضايا الدولية التى يمكن أن نطبق عليها ما ذكرناه سابقا : الصراع العربى / الإيرانى ، والذى تطور مؤخرا إلى حرب طاحنة بين العراق وإيران تورطت فيها أطراف أخرى عديدة من خارج المنطقة ولا تزال مستمرة منذ سبتمبر ١٩٨٠ ، وهو صراع يعبر عن تناقضات عربية إيرانية لها جذور ضاربة فى التاريخ الحضارى والسياسى للمنطقة ، ونعود إلى أسباب موضوعية •

وبادىء ذى بدء ، تنبغى الإشارة إلى أن هيكل كان أول من تنبه من مفكرى النصف الثانى من القرن العشرين ( وعلى حد علمنا ) إلى أهمية تناول هذه التناقضات بالتحليل ، وتجرى المؤثرات والتيارات التى تساعد على إحمائها فى إيران وفى المنطقة ككل ، من داخل المنطقة ومن خارجها

أيضا ، وبحث التطورات الممكنة الحدوث بشأنها بدءا من تغيير ما فى داخل إيران وحتى نشوب صراع مسلح بين العرب وإيران • ثم انه لم يتوقف يوما عن متابعة وتناول قضية الصراع العربى / الإيرانى منذ أن بدأ يمارس الكتابة السياسية وحتى الآن ، حتى أن باكورة إنتاجه فى هذا المجال دار حول نفس القضية وهو كتابه المعنون : إيران فوق بركان والمنشور عام ١٩٥١

والمتتبع لما كتبه هيكل حول الصراع العربى / الإيرانى يلحظ أن المبادىء التى تحكم تفكيره بشأنه تتغير مطلقا ، فهو يعتقد أن إيران تقوم بضغط واضح ومستمر على الجناح الشرقى للوطن العربى فى إطار مخطط شامل يعد الخطر الصهيونى القائم فى فلسطين المحتلة أهم جزء فيه على الإطلاق ، وأن هناك صدا ما يختمر فى منطقة الخليج ، وأن دول الخليج سوف تجد نفسها فى احتكاكات خطيرة مع إيران ، وأن العراق بل والسعودية سوف تجدان أنهما لا تستطيعان التزام موقف المتفرج منها ( تساؤلات وإيضاحات ، جريدة الأهرام ، ١٩٦٨/١/٢٦ ) ويرى هيكل أن الخليج الذى طالما نبهت مصر إلى الأخطار المتحفزة له يواجه مقدمات هذه الأخطار التى تتمثل فى نظام تحركه مطامع استعمارية ( أشار هيكل هنا إلى نظام الشاه على وجه الخصوص ، وفى اعتقادنا أن ذلك ينسحب على أى نظام قام أو يقوم فى إيران ــ بما فى ذلك النظام الحالى ــ ذلك أن الأهداف واحدة وإن اختلفت الأيديولوجية ) لصدام مع القومية العربية ، تغريه به اعتبارات عديدة ( معالم على الطريق ، جريدة الأهرام ، ١٩٦٨/٢/٢ ) ، ومن وجهة نظر أن قيمة مصر فى آسيا كلها وتأثيرها وإشعاعها وإلهامها هناك قضية مبدأ ، وأن المبدأ مبدأ فى العالم كله ( نحو استراتيجية عربية جديدة ، جريدة الأهرام ، ١٩٧١/٧/٩ ) وأن العلاقات العربية من الاغيار يجب أن تكون شيئا آخر غير النقيضين : الصخب العالى أو الصمت المكتوم ، ذلك أن هناك طريقا آخر متاحا بين الإثنين لسياسة دولية يمكنها أن تخدم بأكبر قدر من الكفاية صراعنا مع إسرائيل ( نفس

المقال السابق ) ويعتقد أيضا أن بناء قوة بحرية عربية فى الخليج ، لمواجهه التطورات المحتملة فيه ــ يعد أمرا أساسيا ( يشير هنا إلى أن عبد الناصر حاول منذ ١٩٥٨ أن يلفت نظر الحكومات العراقية المتعاقبة إلى أهميــة ذلك ) وأن المنطقة تحتاج إلى تحالف جديد للقوى لا يضع حدا للخلافات بين العرب وحسب ، بل يحشد تأييد كل الدول الإسلامية فى المنطقة فى عملية مواجهة مع إسرائيل ، وفى إطار ذلك فإن النزاع العربى الإيرانى يحتاج إلى مراجعة ٠

وفى ضوء كل هذه المبادىء التى أثبتت صدقها الأحداث التى مرت بها المنطقة على مدى الأعوام الثلاثين المــاضية ــ نجد أن ما كتبه هيكل عن ممارسات واجبة وما قام به كشريك فى صناعة القرار السياسى وما سجله كصحفى ومفكر سياسى ، فيما يتعلق بالعلاقات المصرية والعربية / الإيرانية ، جاء متباينا ومتقلبا إلى حد بعيد ، وإن كان فى مجمله يأتى فى إطار هــذه المبادىء التى تحقق أهدافا مستقرا عليها بدرجة كبيرة ٠

فبداية نجده يؤيد الاتجــاه إلى تأميم صــناعة البترول فى إيران ( ٥٠ ــ ١٩٥٣ ) وينظر إليه باعتباره بادرة ثورة تم إخمادها ثم أخذت شكلا سريا حتى تفجرت نهائيا فى ٧٨ ــ ١٩٧٩ ، ثم يراه يهــاجم السيــاســات الإيرانية بعد ذلك بنحو أربعة أعوام ( وكانت إيران فى ذلك الوقت عضوا أساسيا فى حلف بغداد ) ثم يساهم إسهاما كبيرا فى أعقاب حرب ٦٧ فى إعادة العلاقات الدبلوماسية بين مصر وإيران ويدعو فى نهاية عام ١٩٧١ إلى إثارة مشكلة البترول الإيرانى الذى يتدفق إلى إسرائيل مع النظام الحــاكم فى إيران فى مقابل إثارته معنا لمشكلة الجزر العربية الثلاث التى استولى عليها فى الخليج ( من منطلق أن العلاقات المصرية / الإيرانية وقتها كانت علاقات صداقة وآخذة فى النمو ) وقد كان قبل ذلك يرى أن شاه إيران تحركه مطامع استعمارية لصدام مع العرب ، سعيا وراء توسيع ملكه ورفع مكانته بالنسبة للسياسة الأمريكية وإلهاء النضــال الشعبى فى إيران عن

المتناقضات الداخلية الفادحة فى إيران • ثم هو يلعب دورا ما ( لم يفصح عنه ) فى مشكلة الرهائن الأمريكيين الذين احتجزهم الطلبة الإيرانيون فى السفارة الأمريكية فى طهران بعد قيام الثورة الإسلامية هناك ، ويتلقى منهم دعوة لمقابلته بهدف الحديث معه فى موضوعات كثيرة ! وقبل اندلاع الثورة بعدة أعوام نراه يتلقى دعوات متتالية من الشاه لزيارة إيران ، ونراه يدير معه فى ١٩٧٥ ( عندما تمت الزيارة ) حديثا مطولا ، وكذلك مع رئيس وزرائه ومع رئيس جهاز السافاك المخيف ، ويلتقى خلال زيارته تلك مع معارضى نظام الشاه والطلاب اليساريين واليمينيين ، ثم يلتقى مع آية الله الخمينى فى باريس قبل الثورة وفى مدينة قم بعدها ، ويلتقى مع كل أعضاء المجلس الثورى ومعظم القيادات الدينية والسياسية والعسكرية فى النظام الثورى الجديد •

ونجد أن رأيه فى الشاه بعد مقابلته له فى ١٩٥١ أنه شاب طيب يحاول خدمة بلاده ، ويعيد للفقراء جزءا من حقهم المغتصب ، لكن هذا الشاب الصغير القلق أصبح بعد خمسة وعشرين عاما أوتوقراطيا واثقا من نفسه ، يتحسس طريقه خلال حقل الألغام السياسية ، ويتعامل مع الأمريكان معاملة الند للند ، وطموحه أكبر من طموحهم ، ثم نجد الشاه فى كتاب هيكل : مدافع آية الله ــ قصة إيران والثورة (١٩٨٢) رجل يتلاءم مع متطلبات دعائيــة ، ضعيف الشخصية ، يتصرف بعجــرفة متزايدة ، يظن أنه هو الدولة •

وأخيرا فإن هيكل يوصف مشكلة الأمة العربية فى الوقت الحاضر بشأن الصراع الدائر فى الخليج فى أنها تتخذ موقف الحرص على النظام العراقى وعلى الثورة الإيرانية فى آن واحد ، باعتبــار الأخيرة ظــاهرة إنسانية ضخمة ، وبسبب هذا الموقف فإن العرب لم يفعلوا شيئا • ويرى أنه لا نظام فى إيران حتى يسقط وأنه لا نهاية مرتقبة للحرب الدائرة الآن فى الخليج •



بعد الفراغ من تجميع مواد الـكتاب والاسـتقرار على الأبواب والفصول ثم إعادة صياغة المسودات وبالتالى إعادة قراءتها بتمعن أكثر وعرضها على أسـاتذة كبار لرؤية بانورامية وتشمل قبـل عرضها على الأستاذ نفسه .

وكان هناك اقتراح بعرض الفصول التى تميل إلى جانب هيكل عليه شخصيا وحجب باقى الفصول التى من وجهـة نظر أيضا أنهـا تجرح الأستاذ .

وبرز رأى أن نفاجىء الصفوة والمثقفين والباحثين عن المتاعب بنشر الكتاب ويجد كاتبنا سيرته وترجمته بصراحة

غير أن رأيا متزنا رأى أن نعرض الكتاب كله بجميع فصوله على الهرم الذى لا يعبأ أن تتناوله بعض الآراء والعبارات ( وهى لا تخرج عن حدود الأدب واللياقة الموضوعية ) فهو إنسان كباقى البشر يأكل الطعام ويمشى فى سوق عكاظ الصحفى يصيب ويخطىء ولابد له من أن يزن الأمور ويقدر التبعات فإن أصابه مديح تبسم على استحياء وإن أصابه سهم اطمأن قلبه فالعصمة لا تكون إلا لنبى .

وها أنت ترى عزيزى القارىء أننا لم نغترف من بئر هيكل سوى دلو واحد فهل يروى ظمأ العطشى ولعلك تشفق علينا ونحن نلهث وراء السراب حتى ندرك الحقيقة وتتزود من المعين الذى ينساب ذلالا .

ولعل آخرون وهم كثير يعبون من جداول تنساب الهوينى أمامهم وهم جالسون تحت الأشجار الوارفة الظلال وينابيع تتدفق من كل حدب أن يسكبوا يراعهم فى هذا المداد الداكن ويحفروا قنوات جديدة للمعرفة فستزيد علما بهرم الصحافة العربية الشامخ القابع على هضبة صاحبة الجلالة عبر ما ينيف عن نصف قرن وكلما صوبت إليه الألفاظ والكلمات المفتريات كلما زاد بريقا ولمعانا وتطاولا فى البنيان •

بل فى الإمكان الكتابة عن أسلوبه من الناحيــة اللغوية والنحوية واستعاراته لعبارات من الروايات العربيــة والأجنبية العــالمية وكذلك استخدامه للألفاظ التى تحتمل المعــانى الكثيرة بل إن مصطلحات زوار الفجــر ومراكز القوى وما إلى ذلك من صميم ابتــكاراته وفى الجعبة الكثير •

# المراجع


— **إبراهيم عبده :**

تاريخ بلا وثائق • القاهرة ، سجل العرب ، ١٩٧٥
كلمة حق للتاريخ • القاهرة ، سجل العرب ، ١٩٧٧

— **الحسينى الديب :**

هيكل ، الأخلاقيات الصحفية ، القاهرة ، دار ممفيس ، ١٩٨٠

— **زكريا نيـل :**

أسرار سياسية • القاهرة ، دار الشعب ، ١٩٧١

— **السيد ابو النجا :**

السيد أبو النجا مع هؤلاء • القاهرة د• ن ، ١٩٨٥

— **فؤاد زكريـا :**

كم عمر الغضب ؟ هيـكل وأزمـة العقـل العربى ، القاهرة ، دار القاهرة ، ١٩٨٤

— **فؤاد مطـر :**

بصراحة عن عبد الناصر ، حوار مع محمد حسنين هيكل ، بيروت ، دار القضايا ، ١٩٧٥

— **لويس عوض :**

أقنعة الناصرية السبعة ، مناقشة توفيق الحكيم ومحمـد حسنين هيكل • بيروت ، دار القضايا ، د• ت•

— محمد احمد فرغلى :

عشت حياتى مع هؤلاء . القاهرة ، مؤسسة الأهرام ، ١٩٨٤

— محمد حمـدى :

محمد حسنين هيكل ، بصراحة فى ١٥ عاما — ١٩٥٧ — ١٩٧١ .
القاهرة ، مؤسسة الأهرام . جزآن .

— موسى صـبرى :

السادات ، الحقيقة والأسطورة .
القاهرة ، المكتب المصرى الحديث ، ١٩٨٦

— هشام بحرى :

صحافة الغد . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨

## المؤلفات

— آفاق الثمانينات . بيروت ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ١٩٨٧

— أحاديث فى العاصفة . القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٨٧

— أزمة المثقفين . القاهرة ، الشركة العربية المتحدة ، ١٩٦١

— الاستعمار لعبته الملك . القاهرة ، دار العصر الحديث ، د. ت.

— إيران فوق بركان . القاهرة ، مؤسسة أخبار اليوم ، ١٩٥١

— بين الصحافة السياسية ، قصة ووثائق معركة غريبة فى الحرب الخفية . بيروت ، شركة المطبوعات ، ١٩٨٤

— الحل والحرب . بيروت ، شركة المطبوعات ، ١٩٧٧

— خبايا السويس . القاهرة ، دار العصر الحديث ، د. ت.

— خريف الغضب . قصة بداية ونهاية عصر السادات ، بيروت ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ١٩٨٥

— زيارة جديدة للتاريخ . بيروت ، شركة المطبوعات ، ١٩٨٥

— عبد الناصر . السجل بالصور . القاهرة ، مؤسسة الأهرام ، ١٩٧١

— العقد النفسية التى تحكم الشرق الأوسط . القاهرة ، الشركة العربية للطباعة ، ١٩٥٨

— عند مفترق الطرق ، حرب أكتوبر ماذا حدث فيها .. وماذا حدث بعدها . بيروت ، شركة المطبوعات ، ١٩٨٣

— قصة السويس ، آخر المعارك فى عصر العمالقة • بيروت ، شركة المطبوعات ١٩٨٢

— لمصر لا لعبد الناصر • بيروت ، شركة المطبوعات ، ١٩٨٢

— ما الذى جرى فى سوريا ؟ القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د• ت•

— محاضر محادثات الوحدة • القاهرة ، مؤسسة الأهرام ، د• ت•

— مدافع آية الله ، قصة إيران والثورة • بيروت ، دار الشروق ، ١٩٨٢

— موعد مع الشمس ، أحاديث آسيا • بيروت ، دار المعارف ، ١٩٧٣

— ملفات السويس ، حرب الثلاثين سنة • القاهرة ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، ١٩٨٦

— نحن وأمريكا • القاهرة دار العصر الحديث ، ١٩٦٧

— وقائع تحقيق سياسى أمام المدعى الاشتراكى • بيروت ، شركة المطبوعات ، ١٩٨٣

— يا صاحب الجلالة • القاهرة ، الدار القومية للطباعة ، د• ت•

# كشاف تحليلى

## (أ)

## (ب)

## ( ت )



## ( ث )

## (ج)



## (ح)

## ( ر )



## ( ز )



## (س)

## (ش)



## (ص)

## (ض)



## (ط)



## ( ع )


٧٣ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٦ ، ٩١

## (ف)

## ( ق )

## ( ك )



## ( ل )

# (م)

## ( ن )

# ( هـ )



# ( و )



# ( ى )

# المحتويات

| الموضـــوع | الصفحة |
| --- | --- |

رقم الإيداع : ١٩٨٨/١٧١١
الترقيم الدولى : ٦ — ١٣٠ — ١٦٣ — ٩٧٧

**المطبعة العربية الحديثة**
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفــــون : ٨٢٦٢٨٠ القــــاهرة